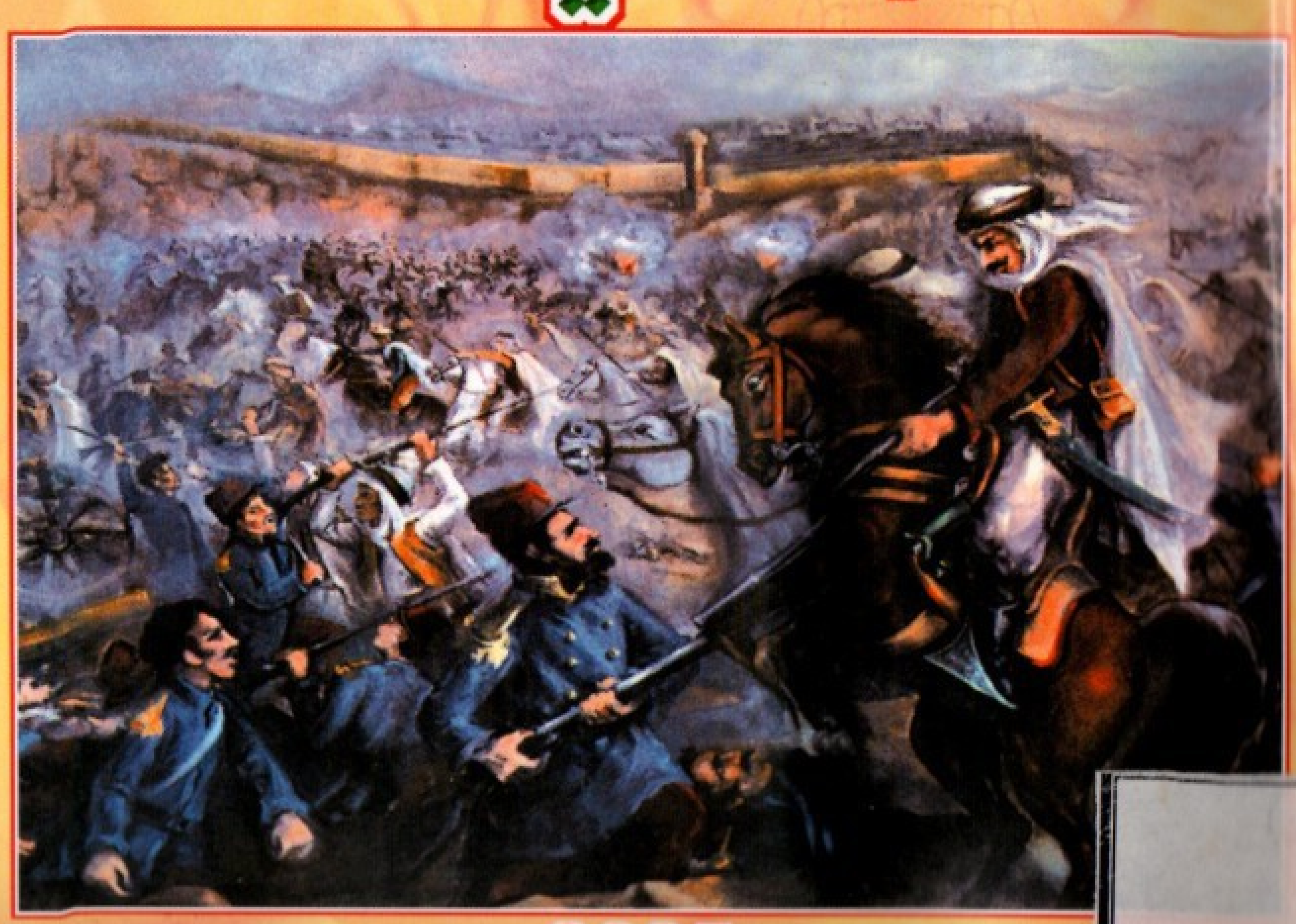
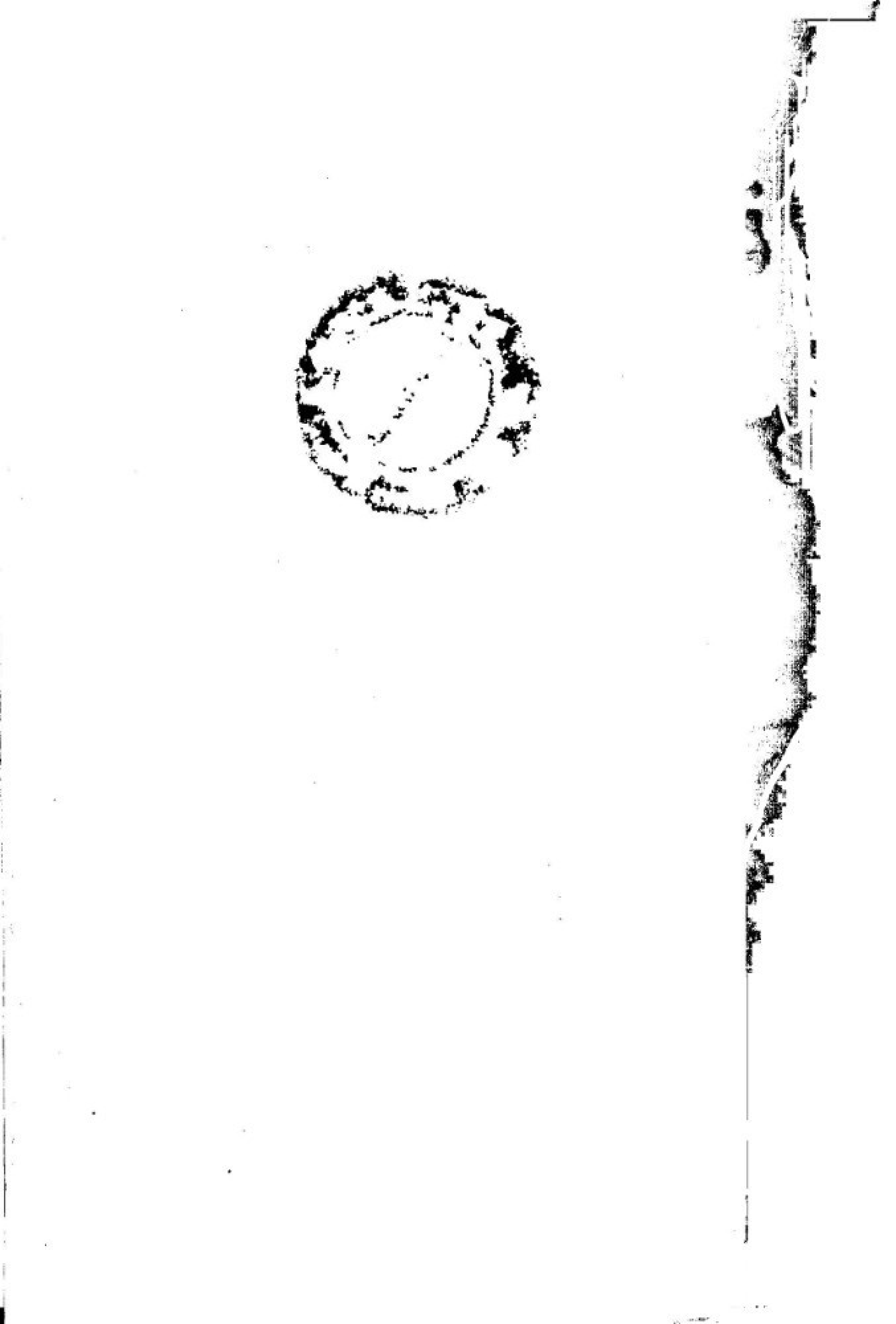
أ. د. عميراوي احميده

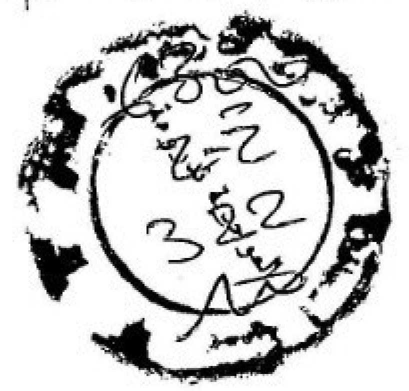
قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث



2005



الأستاذ الدكتور عميراوي احميده
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية



قضايا مختصرة
في تاريخ الجزائر الحديث

2005/1426

رقم الإيداع القانوني 310 - 2005 المكتبة الوطنية
ردمك 9 - 0749 - 0 - 9947

تم الطبع بشركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع – عين مليلة
الهاتف 47 95 44 032/00 92 44 032 الفاكس 18 94 44 032
www.elhouda.com

الإهداء . .

ليس مطلقا أن يعيش المؤرخ في نور هامس

فمن حقه وعليه أن ينام في ظلام دامس

فإلى كل من قال كلمةً بصدق من أجل الجزائر أهدي هذا العمل

إلى والديّ الرحيمين

اللذين ربياني على قول الكلمة بصدق

الأستاذ الدكتور عميراوي احميده

20 مارس 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

فضلت في مسيرتي الصغيرة في رحاب تاريخ الجزائر أن أجمع موضوعات سبق وأن نشرتها في مجلات، أو عرضتها في ندوات علمية؛ أجمعها وأقدمها للقراء في حجم متوسط لتكون في متناول أكبر عدد منهم.

ويعد هذا العمل ضمن هذه السلسلة، وقد اشتمل على ثمانية عشر موضوعا من تاريخ الجزائر الحديث. بعض هذه الموضوعات قصيرة مركزة على قضايا محددة، كان أكثرها قدم في ملتقيات وندوات علمية. ولهذا جاءت هذه الموضوعات متسلسلة تتضمن أفكارا منها بالاختصار المفيد في هذا الشكل:

1- **التأريخ والتاريخ والأرشيف**: إن الهدف من عرض هذا الموضوع هو تبيان الفروق بين هذه المفاهيم (تدوين وتفسير وحفظ) وتوظيفها بشكل علمي نافع.

2- **إشكالية التاريخ في خطاب الهوية بالجزائر الحديثة**: في هذا الموضوع محاولة للإجابة على ما هي إشكالية التاريخ في الجزائر؟ وكيف وظف التاريخ في خطاب الهوية الجزائرية بعد الحصول على الاستقلال السياسي؟

3- **هارك ولوفس** (Harck Olufs) **الأسير الدانماركي**: يعد هذا مصدرا نادرا في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني. وكيف يصبح وزيرا بعد أن كان أسيرا؟

4- مذكرات تيدنا مصدر نادر في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني: في هذا الموضوع تبيان لظروف الأسرى المسيحيين. وكيف صار تيدنا وزيرا؟

5- رحلات استكشافية في الجنوب الجزائري: يعد أدب الرحلة مخزونا تراثيا هاما. ومصدرا رئيسا في تاريخ الجزائر. والرحلة إلى الجنوب الجزائري كانت بدافع سياسي واقتصادي وديني ونفسي.

6- عن هجرة العلماء الجزائريين: شكل العلماء حلقة الوصل بين بلدان المغرب والمشرق بهجراتهم ورحلاتهم التي كانت بدوافع وأسباب كثيرة، منها الرغبة الدينية، والمنافع المادية، وسوء العلاقة التي كانت بينهم وبين الحكام. وبينهم وبين العامة من الناس. وكانت هجرة العلماء كذلك إلى الجزائر من البلاد الإسلامية.

7-أثر المذهب المالكي في الثقافة الجزائرية: شكل المخزون الفكري للمذهب المالكي مصدرا هاما في الثقافة الجزائرية، إلى درجة يمكن القول إن المسار العقدي والسياسي والاجتماعي الجزائري كان مشدودا إلى مبادئ هذا المذهب.

8- موجز عن نظام الحكم بالجزائر في العهد العثماني: عرف نظام الحكم العثماني في الجزائر مراحل متميزة ، نسبت إلى رتب حاكميها الأجانب عن الجزائر. وكانت ثورات جزائرية ضدهم.

9- واقع السلطة في تاريخ العالم العربي الحديث: لم تكن سلطة واحدة موحدة في البلاد العربية الإسلامية. وكانت مفاهيم كثيرة سائدة مثل القومية العربية، والقومية الإسلامية. والمعاصرة والأصالة. والتطرف والاعتدال. الانفتاح والمحافظة. وفي ظل هذا كان غياب السلطة الشرعية في البلاد العربية الإسلامية

10- **إسهامات في الإصلاح والسياسة:** في هذا الموضوع يكون الحديث باختصار عن مفهوم الإصلاح السياسي، السياسة، والنخبة، وعلاقة هذه النخبة بالديمقراطية، وما هي إسهامات بعض الجزائريين في الإصلاح لسياسي.

11- **ملكية الأرض في الجزائر العاصمة وأحوازها بداية الاستيطان الأوروبي:** وجدت فرنسا أرض شاسعة كانت ملك البايلك فحولتها إلى أملاك الدومين.

12- **اعتماد المكاتب العربية في المقاطعات:** لعبت المكاتب العربية دورا هاما في التوسع الاستيطاني والتقارب بين الجزائريين والفرنسيين بداية من عام 1854

13- **الإدارة والمقاومة في منطقة قسنطينة أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي:**حاولت السلطة الفرنسية استبقاء بعض المناصب الإدارية التي كانت في العهد العثماني، وأضافت عليها مناصب أخرى لحكم البلاد بأبناء البلاد، لكن المقاومة الجزائرية كانت عنيفة.

14- **فعل الترجمة في السياسة الفرنسية بالجزائر:** لعب المترجمون الأجانب عن الجزائر من عرب ومستشرقين ويهود دور الوساطة بين المحتلين ولسكان الأصليين. وأحدثوا أشياء كثيرة في الجزائر؛ أشياء عمرانية وتعليمية وإدارية.

15- **بداية السياسة التجارية الفرنسية في الجزائر:** كان النظام العثماني عائقا أمام ظهور برجوازية تجارية جزائرية، الأمر الذي فتح المجال للتجار الأوروبيين بجانب التجار اليهود كي يحتكروا أسواق الجزائر الداخلية وعلاقاتها بالأسواق الخارجية.

16- **السياسة الطبية الفرنسية في الجزائر:** لم يكن الاهتمام كبيرا بالطب في العهد العثماني. ولكنه بمجيء الاحتلال الفرنسي صار الطب موضع اهتمام لدى

غالبية السكان، ووسيلة سياسية لتكريس الاستيطان في الجزائـــر، فتأسَّســـت المستشفيات وألفت الكتب والجرائد.

17- **ثورة ازغاية عام 1864 من خلال وثائق نادرة:** كانت هذه الثورة يـــوم الثامن عشر من مارس بالهجوم على مركز المؤونة للفرنسيين في البرج من قبـــل المجاهدين وعلى رأسهم شيخ الطريقة الرحمانية.

18- **من سياسة فرنسا في الجزائر الإعدام:** إن أبشع ما في سياسة فرنسا ما تم من إعدام، وما صدر من أحكام في حق الجزائريين المجاهدين الأبريـــاء، ولهـــذا فالذي يجب إحياء ذكرى الشهداء في المشاعر وبالوفاء لا بالمظاهر.

وأتمنى أن يكون هذا العمل مفيدا لمن يقرأ تاريخ الجزائر، ويقتنع به، لأنـــه من الأمور التي يجب أن نعمل من أجلها هي ليس المهم أن نكتب في تـــاريخ الجزائر وإنما الأهم هو أن يقتنع الآخرون بما نكتب؛ والسبيل إلى ذلك هو أن نكتب بمنهج علمي من دون زيادة، بعيدا عن لغة المناقب والتملق والتزلف.

الأستاذ الدكتور عميراوي احميده

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة في 20 مارس 2005

التأريخ والتاريخ والأرشيف[1]

مقدمة

إن الكتابة والبحث في تاريخ الجزائر مسؤولية وطنية كبيرة. وإن تدوين نتائج هذا البحث وتوظيفها واجب وطني واستراتيجية فاعلة. وإن التوقف والتأمل في ما أنجزناه من مادة تاريخية خلال مسيرة أربعة عقود من الزمن أمرٌ لا بدّ منه. والسؤال الذي يمكن طرحه هو هل يمكن كتابة التاريخ من دون الاعتماد على الأرشيف؟ وبعبارة أخرى ما هي أهمية الأرشيف في غربلة التاريخ؟ للإجابة على مثل هذه الأسئلة نقدم هذا العرض في هذه الورقة من خلال الحديث عن المفاهيم الآتية:

1- التأريخ

2- أهمية الأرشيف

3- التاريخ

4 – فلسفة التاريخ

5- استراتيجية التاريخ

6- اقتراحات

1- أعدت هذه الورقة للندوة الخاصة التي ينظمها مجلس الأمة يوم 2004/06/20 حول: كتابة التاريخ وترقية التشريع في التعامل مع الأرشيف

1- معنى التأريخ: [تدوين الحدث]

حاول كثير من الدارسين تحديد معنى التأريخ والتاريخ، وتوصلوا إلى معطيات منها أن كلمة "التاريخ" عربية عند البعض وغير عربية عند البعض الآخر. ولكن المؤكد أن الكلمة وردت فعلا في العربية حين أُدخل التقويم الهجري عهد عمر بن الخطاب ﷺ . وذهب بعض المستشرقين إلى القول إن كلمة التاريخ لم تظهر في الأدب الجاهلي ولا في القرآن الكريم ولا في الأحاديث النبوية[1]. ولكنها وردت في الأكادية بنطق "ارخو" وفي العبرية بنطق "يرخ" وتعني القمر أو الشهر. ومن ثم تكون كلمة تاريخ تعني التوقيت. بينما في اليونانية (Arché) [أرخي] تعني البدايةَ؛ البداية لحكم أو لحدث. وعلى هذا الأساس كان التأريخ أو التدوين للحدث من اهتمامات الإنسان منذ القدم. وبعدها صار التدوين التاريخي يعني المادة الخبرية ، أي نقل الأحداث. والتأليف التاريخي يعني السرد والتفسير. وبقي التاريخ مادة وسردا وتفسيرا على وتيرة متشابهة بين مختلف الشعوب. يكاد يكون الغيبُ والسكون القاسمَ المشترك فيهما إلى غاية مطلع القرن التاسع عشر حين ظهرت مدارس أعطت للتاريخ أبعادا أخرى خاصة حين تم اكتشاف نظرية النشوء والارتقاء.

إذن فالتأريخ هو تدوين الحدث وعلى أساسه يكون من حق كل الأطراف أن تشترك في تدوين هذا الحدث، أي أن يشترك صانعُ الحدث بمذكراته، ومشاهداته وبرواياته، وسامعه بتسجيلاته، وجامعه بتقنياته. يشارك كل واحد فيه بالرغم ما يغلب من ذاتية في تدوين الحدث، لإلحاح الرغبة على

---

1 - آلبان. ج. ويدجري، **التاريخ وكيف يفسرونه**، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1973

أن يدون صاحب المذكرات بذاتية متحيزة قد تدفعه إلى تشويه بعض الحقائق. ومن ثم يكون اعتماد التأريخ على المنهج الوصفي أكثر من اعتماده على المناهج الأخرى. وبهذا يكون التأريخ المرحلةَ الأولى الأساسية الصحيحة لبناء تاريخ الأمة. ولتأسيس الأرشيف. ومن هذا يمكن الوصول إلى نتيجة وهي لا أرشيف من دون تأريخ.

وإذا كانت الفترة المعاصرة لما بعد عام 1954 من تاريخ الجزائر تفرض الجمع والتدوين والتصنيف والنشر أكثر مما تفرض التفسير. فإن التاريخ الحديث الجزائري يمكن أن يكتب بشكل تفسيري أكثر، لأنه صار من الواضح الآن أن مادة غزيرة من وثائق ومخطوطات ومؤلفات نادرة عن تاريخ الجزائر، لا تزال دون تحقيق ونشر على الرغم من الشعور بأهميتها ووجود بعض المتخصصين والمهتمين بالدراسات التاريخية أشخاصا وهيئات[1]. وحسب ما تعودنا عليه أثناء الحديث عن تاريخ الجزائر عادة لا يكون الحديث إلاّ وصفا للحدث وتحديدا لموقف الجزائري منه، وغالبا ما يكون وصف هذا الحدث بلغة المناقب. فهذا الوصف تجاوزته الدراسات التاريخية والفكرية الحديثة؛ لأن الأمر الآن لا يتطلب الوصف للواقع وإسكانه أو تغييبه وإنما يتطلب بناءه بشكل صحيح وتطويره ليساهم في عملية النهوض، لأن الوصف يوقظ وينبه ولكنه يسكن الواقع بينما النقد والتغيير والتفسير يساهم في بناء معلومات تاريخية دالة. والنقد الذاتي يجب أن يكون بعيدا عن التزلف ومن دون تهويل المواقف؛ وفي حوار هادئ انطلاقا من قناعة وهي أنه ليس كل ما يقال صوابا فهو قد يحمل الخطأ وليس كل ما

---

1 – لمزيد من المعلومات يراجع كتابي **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث**، منشورات جامعة منتوري–قسنطينة 1999 بداية من صفحة 6

يقال خاطئا فهو قد يحمل الصواب. وعليه لا بد من إشراك كل الفعاليات من دون إقصاء.

2- أهمية الأرشيف: [حفظ الحدث]

إن الأرشيف هو الوعاء الحافظ للتأريخ، أي هو ذاكرة الأمة المشكلة من المادة الخبرية المصدرية المتكونة من كتابة ورسم وصورة ورمز وصوت. يكون في بناية ذات نظام إداري محكم، بجانب المتحف. وأن أساس هذه الذاكرة الوثيقةُ التاريخية. وهنا يتداخل، بل يتكامل دور كل من الأرشيف والمتحف. وتعدان هاتان المؤسستان وسيلة تربوية لتهذيب الذوق والتحسيس بالمخايلة والتواصل.

والوثيقة لا تصنف بمحتواها السياسي أو الاقتصادي أو غير ذلك وإنما بمصدرها وبموضوعها المتخصص، أي بما إذا كانت أرشيفية أو متحفية (مخطوط أو نقيشة أو رسم أو صوت). والوثيقة ابنة المنطقة التي ولدت فيها. وقد تكون تدوينا لحقيقة ما أو تزييفا لها، فهي إسقاط لواقع ما أو لموقف ذاتي معين. لهذا يكوّن التعامل مع الوثيقة من خلال الواقع ومن خلال الاتجاه الفكري الذي أنتجها[1].

إن الاطلاع على الوثيقة من حيث المبدأ ملكٌ للعامة وبخاصة العامة المثقفة. ولكن هل لغير المتخصص الحق أن يدرس هذه الوثيقة؟ لأن الإشكال ليس في تملك الوثيقة بقدر ما هو في توظيفها، لأن التوظيف التاريخي للوثيقة

1- لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **من الملتقيات التاريخية**، دار البعث ، قسنطينة 2001، بداية من صفحة 7

ليس هو نفس التوظيف القانوني لها أو التوظيف الدبلوماسي. ومن هنا تطرح قضية هي هل يمكن الحديث عن شرعية المصادرة للوثيقة أو وضعها تحت وصاية ما؟ وهنا للمشرع دور كبير في الإجابة على هذا السؤال.

إن إعادة النظر في أهمية الوثيقة وعلاقتها بالتاريخ الجزائري تعدّ من المسؤوليات الوطنية الشريفة. خاصة الوثيقة التي كتبتها خلال فترة الاستيطان الأوروبي أقلامٌ أجنبية وأقلام وطنية. والسؤال الذي يمكن طرحه هو كيف يكون التعامل مع هذه الوثيقة؟ وتكون الإجابة على مثل هذا السؤال بدءا في رأيي **بجمع الوثائق كمادة مصدرية وتصنيفها ثم دراستها**. بعدها يكون التحقيق والنشر لهذه المادة المصدرية الذي يعني الوعي بتراثنا. والوعي بمسؤوليات البحث الهادفة إلى النهوض بالمستوى الفكري في كافة القطاعات. ويعني كذلك الإدراك للواقع المعاصر الذي تتعدى مسؤولياته حدود الإشادة بالماضي والحلم بالمستقبل إلى مرحلة بناء للحاضر برؤية واضحة. وبذلك يصبح الاهتمام بالوثيقة والبحث فيها دلالة فكرية القصد منها التعبير عن حركة الماضي والحاضر. ورسالة علمية ليس القصد منها كسب العيش والوصول إلى وظائف عالية فقط.

لكن الصعوبة تكمن في الإجابة على السؤال الآتي: هل التعامل مع الوثيقة المكتوبة في الجزائر باللغة غير العربية التي دونها غير الجزائري يكون بنفس التعامل مع الوثيقة بالعربية أو بلغة أخرى التي دونها الجزائري؟

نطرح هذا السؤال لأن القراءة تختلف بين وثيقة وأخرى، ففي قراءة الوثيقة الأجنبية وموضوعها الجزائر وكتبت في الجزائر فهي من حيث الروح والمنشأ تعتبر جزائرية، ولكنها كتبت بأداة لغوية وتقنية غير جزائرية، فهي ستكون في

ذاتيتها تختلف عن الوثيقة التي كتبها جزائري بأداة عربية وبتقنيات جزائرية لأن في هذه الأخيرة قد تكون القراءة لذواتنا. بينما في الأولى قد تكون قراءة في ذوات الآخرين.

ومهما يكن من أمر فالوثيقة الأجنبية تكون مكملة للوثيقة الجزائرية. ولكن على الدارس أن يخضع كلا النوعين إلى أسئلة يطرحها ليحاور من خلالها محتوى الوثيقة. وعليه لا يمكن الاستغناء عن المادة الخبرية التي دونها الأجنبي عن تاريخ الجزائر وهو في الجزائر فمن دونها لا يمكن إعادة بناء التاريخ الوطني. ولا يعقل أن يبنى تاريخ من دون مصادر، بل من دون تاريخ.

إذن علينا أن نجمع هذه المادة كمصادر أساسية ونقوم بدراستها قصد تبيان ما أتت به من تزييف ونقص، وما أضافته من معلومات وحقائق وذلك بتقييم الوثائق بالتعامل معها بمنهج علمي هادئ متخصص. على أن تكون بدايته بإجراء نقد لمنهج الغربيين فيما تركوه من وثائق عن تاريخ الجزائر. وخلاصة القول إن للأرشيف دورا هاما بحفظ الوثيقة. وإنه لا أرشيف من دون تأريخ.

3- معنى التاريخ: [تفسير الحدث]

يمثل التاريخ المخزون المعرفي والعلمي للعلوم الإسلامية والإنسانية. أي، أنه وعاء الخبرة البشرية الحسنة والسيئة. ومن هذا المخزون تكون الدراسة وإصدار الأحكام والتأليف للحقائق الدالة. والاقتناع بهذا الأمر يعني الوعي بتراثنا وبأصالة الحضارة العربية الإسلامية. والوعي بمسؤوليات البحث الهادفة إلى النهوض بالمستوى الفكري في كافة القطاعات، ويعني كذلك الإدراك للواقع

المعاصر الذي تتعدى مسؤولياته حدود الإشادة بالماضي والحلم بالمستقبل، إلى مرحلة بناء للحاضر وفقا لرؤية واضحة.

إذن فالفرق واضح بين معنى التأريخ ومعنى التاريخ في الدراسات الحديثة. لأنه ببساطة يوجد فرق بين الأحداث التي وقعت في الماضي والماضي نفسه. وعلى هذا الأساس يكون التأريخ عند بعض الدارسين هو دراسة وتدوين الأحداث التي وقعت في الماضي. أي تسجيل الأحداث. وبالتالي "هو السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه"[1]. بينما يكون التاريخ حصيلةَ هذا التدوين وهذه الدراسة التي يتشكل منها الماضي. أي، هو جملة الأحداث ذاتها التي عرفها كائن أو مجتمع ما[2]. ولهذا لم يكن للتاريخ مفهوم واحد في المدارس التاريخية فهو يختلف في تفسيرات الدينيين[3]. ويختلف أيضا في تفسيرات العلمانيين[4]. وعدم وجود تعريف واحد متفق عليه يشكل صعوبة أمام الدارسين والمشرعين.

---

1 – قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، دار العلم للملايين، بيروت 1959 ص. 49

2 –ينظر كلّ من: إبراهيم أنيس وآخرون، **المعجم الوسيط**، ج.1، دار الأمواج، ط. 2، بيروت 1987، ص. 13

وكذلك ابن منظور، **لسان العرب**، ج. 1، (؟) ص-ص. 113-114. وعلى هذا الأساس يمكن القول إنه لا تاريخ من دون تأريخ ومن دون أرشيف.

3 – مفهوم التاريخ عند العلمانيين هو حدث بشري زمكاني وقع في الماضي، بينما هو عند الدينيين الإلهيين والطبيعيين يكون بشريا وغير بشري ويكون في أي زمان وفي أي مكان. لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **فواصل من الفكر والتاريخ**، دار البعث، قسطنطينة 2002، بداية من صفحة 49

4 – لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **فواصل من الفكر** ، بداية من صفحة 49

إذن، فنحن ممن يقتنعون بوجود فرق بين التأريخ في حدّ ذاته والتاريخ الذي هو تفسير للتأريخ. وعلى هذا الأساس فالفرق واضح بين التأريخ والتاريخ، أي بين النصوص في ذاتها وبين فهم النصوص وتأويلها. وبناء عليه يمكن القول لا تاريخ من دون تأريخ ومن دون أرشيف معا. ففي التاريخ يشترط التخصص والاحتراف، أي الباحث الأكاديمي الذي يعتمد المنهج المقارن والاستقرائي والاستنتاجي للوصول إلى الحقيقة التي هي من حق المؤرخ المحترف قبل غيره، إي معرفة الحدث مثلما وقع وليس الحدث الذي يريده مدون الحدث.

4- فلسفة التاريخ: [تفعيل الحدث]

يكون تناول المدارس التاريخية وآراؤها بدراسة التداخل والتكامل بين الفلسفة والدين والتاريخ وبقية العلوم الأخرى. لهذا كانت أراء كثيرة لمدارس متعددة، وهي نوعان الأولى مدارس سكونية والثانية مدارس علمية وعَلمانية. لأن الفهم والدراسة للتاريخ تطورت في العصر الحديث والمعاصر بتطور الأيديولوجيات. وحدث فصل بين التاريخ المقدس والتاريخ الدنيوي[1]. لأن الهدف من التاريخ المقدس كان عبر العصور يعني في غالبه تربيةَ الجنس البشري من أجل معرفة الله ومعرفة الروح "المطلق". في حين كان هدف التاريخ الدنيوي تكوين الإنسان طبيعيا من دون الخضوع للغيب. وعلى هذا الأساس تصعب أهمية التدريس لأنها لا تتوقف فقط على الإمكانات ولا على المعارف أو المناهج

---

1 – لمزيد من المعلومات يراجع: **التاريخ وكيف يفسرونه**. ص-ص. 137-139

وإنما على أيديولوجية الدارس للتاريخ والمدرس للتاريخ والمشرع لتدريس التاريخ.

ويكون المجال فسيحا أمام المنظرين والمشرعين والسياسيين والمربيين المدرسين. وفي رأينا وفي هذا الباب بالذات الخاص بفلسفة التاريخ أفضل أن تكون المزاوجة في دراسة التاريخ بين الذاتية والموضوعية قصد التوجيه السياسي التربوي السليم. وذلك بمضاعفة عوامل التكامل، وإضعاف عوامل الاختلاف، وتبيان مسارات التقاطع والتلاقي. وهو الأمر الذي يجب أن يكون هدفا استراتيجيا من التاريخ.

5- استراتيجية التاريخ: [توظيف الحدث]

المقصود من استراتيجية التاريخ هو حسن توظيفه. مثلا في مجال التربية. فالمتعارف عليه ما للتدريس[1] من أهمية، كبيرة لكونه الأساس الأول في أي نظام تربوي؛ فهو الذي يعبر عن النشاط الاجتماعي والسياسي المنظم والهادف إلى التنمية المستمرة وصقل ثقافة الفرد والأسرة والمجتمع والدولة، وتكوين ضمير جمعي اجتماعي. لأن التعليم دلالة فكرية القصد منها التعبير عن حركة الماضي والحاضر. ورسالة علمية ليس القصد منها كسب العيش والوصول إلى وظائف عالية.

بجانب هذا التدريس لا بد من الاهتمام بالتراث[2]. وفي تقديري أن الاهتمام بهذا الجانب يكون انطلاقا من الأسئلة الآتية: ما المقصود بالتراث؟ كيف نقرأه؟ أي، ما هي أنجع المناهج والتقنيات لقراءة التراث؟ وما هي الفائدة والأهداف من

1- **من الملتقيات**، بداية من صفحة 16

2- **أبحاث في الفكر والتاريخ**، دار الهدى، الجزائر 2003، بداية من صفحة 115

الاهتمام بالتراث؟ وما هي العلاقة بين التراث وواقعنا الحالي؟ وهل يمكن تحديد مصادر تراث الجزائر وأشكاله؟

إذ يعتبر بعض الدارسين التراثَ هو الأثر المتبقي الثابت لا يتكرر ولا يتعدد لكن معرفتنا له هي التي تتعدد بتعدد البنى الفكرية التي يقـرأ بهـا التـراث"[1]. فالتراث يساوي نصف قيمته، وفي حفظه ربع لقيمته وبدراسته تستكمل قيمته. وبتوظيفه تستغل ثماره. وأرى الهدفَ من دراسة التراث معرفةَ الماضي والاعتزاز الذاتي به لبناء المستقبل. وبالتالي فالهدف من دراسته هو تكوين الذاكرة الجماعية المشتركة. والضمير الجمعي للشعب الجزائري كله. فحفظ التراث دلالة وجود وإبداع واستمرار قوة للشعوب خاصة حين يوظف بشكل صـحيح. ومـن ثم يصبح هذا التراث أحد الأسس المشكلة لعمق الثقافة الشعبية والثقافة العالمـة. ومن ثم يكون هو الفاعل في تكوين الشخصية والهوية الجزائرية.

إن الاعتناء بتراث الجزائر ونشره يعني القيام بمسؤوليات البحث الهادفـة إلى النهوض بالمستوى الفكري في كافة القطاعات. ويعني كذلك الإدراك برسـالة الواقع المعاصر الذي تتعدى مسؤولياته حدود الإشادة بالماضي والحلم بالمستقبل إلى مرحلة بناء للحاضر برؤية واضحة. وبذلك يصبح الاهتمام بالتراث والبحث فيه دلالة فكرية القصد منها التعبير عن حركة الماضي والحاضر. ورسالة علميـة ليس القصد منها كسب العيش والوصول إلى وظائف عالية .

1- يراجع: حسين مروة، **تراثنا.. كيف نقرأه**، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، بيروت 1985، ص. 7

إشكالية التاريخ

في خطاب الهوية بالجزائر الحديثة[1]

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الحضور الكريم. . اسمحوا لي أن أغتنم هذه الفرصة لأشكر باسمي وباسمكم الأستاذ محمد زتيلي مدير الثقافة لولاية قسنطينة على ما قام به من جهود طيبة في بعث روح الثقافة العالمة، في هذا البلد انطلاقا من مثل هذه الندوات. ومن مدينة الولاية لتعم النشاطات الثقافية بقية البلديات التابعة لها. وأشكره على إتاحة الفرصة لي لأكون حاضرا معكم مستفيدا؛ أكثر مما أكون أمامكم محاضرا مفيدا، أي، لنتدارس ونتبادل الرأي في جو علمي هادئ حول موضوع شائك وهو إشكالية التاريخ في خطاب الهوية بالجزائر المستقلة. والأفضل عندي أن نكون واضحين في الطرح، وليس شرطا أن نكون متفقين في الرأي دائما. لأن الكتابةَ والبحث في تاريخ الجزائر مسؤوليةٌ وطنية كبيرة هي على عاتق كل الفعاليات. وإن في تدوين نتائج هذا البحث وتوظيفها واجب وطني واستراتيجية فاعلة. وعلى هذا الأساس نرجو ونأمل من السيد مدير الثقافة أن يبذل جهده ليتمكن من طبع كل أعمال الندوات العلمية.

1-ملخص الورقة التي قدمت في ندوة "منتدى الاثنين-المدينة ذاكرة وفن" المركز الثقافي محمد العيد آل خليفة، قسنطينة يوم 2004/11/29.

وأول ما أبدأ به هذا السؤال الرئيس وهو ما هي إشكالية التاريخ في الجزائر؟ وكيف وظف التاريخ في خطاب الهوية الجزائرية بعد الاستقلال السياسي؟ للإجابة على مثل هذه الأسئلة فضلت أن يكون رأيي في هذه الورقة مؤسسا على المفاهيم الآتية التي سبق وأن عرضنا شيئا منها[1]:

1 – مرجعية الهُوية

2 – معنى التأريخ

3 – أهمية الأرشيف

4 – معنى التاريخ

5 – فلسفة التاريخ

6 – استراتيجية التاريخ

1– عرضناها في ندوة نظمها مجلس الأمة في الجزائر يوم 2004/06/20 في الجائر العاصمة حول: كتابة التاريخ وترقية التشريع في التعامل مع الأرشيف.

1- مرجعية الهُوية

كنا نحن الطلبة الجزائريين في السبعينيات نطأطأ رؤوسنا تواضعا لأساتذة التاريخ من الجزائر ومن الدول العربية الشقيقة؛ لكن كثيرا منهم فسروا ذلك التواضع بالضعة، وحشوا رؤوسنا بآراء وأفاهيم ومفاهيم ومصطلحات عانينا الأمرين من عدم صحتها؛ إذ علّمونا أن التاريخ حدث بشري زمكاني وقع في الماضي. وأقنعنا كثير من السياسيين بأن التاريخ ذاكرة الشعوب. وبالمقابل كان كثير من التلاميذ وغيرهم يقولون: التاريخ إلى المزبلة. والسؤال الذي يمكن طرحه هو ما هي علاقة هذا بالهوية الجزائرية؟

فبحسب رأيي أن للهوية أكثر من مرجعية ولا تتحدد إلاّ بالتكامل بين هذه المرجعيات وأهمها:

* المرجعية البشرية من حيث المستويات والبنى الاجتماعية لا من حيث الإثنية/العرقية (فضاء اجتماعي)

* المرجعية الثقافية العادية والعالِمة (عرف، لغة، إبداع..)

* المرجعية الدينية (نصية وفقهية).

* المرجعية السياسية الإقليمية (مجال جغرافي، نظام سياسي وقانوني)

* المرجعية التاريخية (تاريخ وقواسم مشتركة)

وبهذا تصبح الهوية الثقافية عنوان وجود أمة تتمايز اجتماعيا وثقافةً ولغة ودينا وسياسة وتاريخا. أي أن الهوية تكون خدمة للإنسان، وموقعا له في شبكة المواقع العالمية، بها يتميز عن غيره، وبها ومنها يتحاور مع الهويات الأخرى. وبها يكون الدفع إلى أفاق؛ أي التحول. وتكون المحافظة على المقومات؛ أي الثابت.

ويعالج موضوع الهوية بتخصصات علمية متعددة، ومنـــها مـــا يتعلـــق بالتاريخ فقد وقع خلط كبير في الجزائر المستقلة بين المفاهيم العلميـــة. مثلمـــا حدث تجاوز في توظيف هذه المفاهيم الأمر الذي ولّد مترلقات خطيرة في مسيرة الشعب الجزائري الحضارية. ومن هذه المفاهيم نذكر:

2- معنى التأريخ: [تدوين الحدث] مظهر ومصدر الهوية

- أدخل التأريخ في التقويم الهجري عهد عمر بن الخطاب ﷺ.
- تعني كلمةُ **تأريخ** التوقيتَ والبداية؛ أي الحدث.
- وعليه فمن حق الكل أن يدون الحدث.
- يعتمد التأريخ على المنهج الوصفي (ذاتية.. .)
- التأريخ هو المرحلة الأساسية للتاريخ، وبه يتأسس الأرشيف.
- لا أرشيف من دون تأريخ.
- لم يحظ الأرشيف الجزائري (الخاص الأسري، والعام الرسمي) بالعناية الكافية عهد الاستقلال.

3- أهمية الأرشيف: [حفظ الحدث] الثابت في الهوية

- الأرشيف وعاء حافظ للتأريخ، لأن الوثيقة ذاكرة الأمة وضميرها الجمعـــي (هوية)
- الوثيقة ابنة المنطقة التي ولدت فيها. (تداخل بين مطالب القوميـــة/الهويـــة والقانون الدولي)
- الأرشيف وسيلة لجمع الوثائق وتصنيفها لدراستها ونشرها

- هل التعامل مع الوثيقة المكتوبة في الجزائر باللغة غير العربية يتم بنفس التعامل مع الوثيقة بالعربية من قبل الجزائري وغير الجزائري؟

- الوثيقة الأجنبية مكملة للوثيقة الجزائرية. (عكس ما كان ينادي به بعض الجزائريين/تشكيك في الهوية الجزائرية)

- إن للأرشيف دورا هاما في حفظ الوثيقة. وبناء عليه لا أرشيف من دون تأريخ.

- الاستفادة من تجارب الدول الأخرى في اقتناء الوثائق الوطنية. لأن السياسي هو الذي تعامل مع قضايا استرجاع الأرشيف /الأرشيف الفرنسي

4- معنى التاريخ: [تفسير الحدث] فهم الهوية

- التاريخ مخزون معرفي وعلمي. وعامل مشكل للهوية.

- الاهتمام بالتاريخ يعني الوعيَ بالتراث. وبمسؤوليات البحث، والمساهمةَ في ترسيخ الهوية.

- الفرق بين معنى التأريخ ومعنى التاريخ هو الفرق بين الأحداث التي وقعت في الماضي والماضي نفسه. أي بين النصوص في ذاتها وبين فهم النصوص وتأويلها. ونتج عن تأويل غير المتخصصين للنصوص زعزعة الهوية.

- فالتأريخ تدوين وتسجيل للأحداث. والتاريخ تفسير للتأريخ

- أي أن التاريخ دراسة الحدث مثلما وقع، وليس دراسة الحدث الذي نريده أن يكون هكذا وقع[1].

---

1 - لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث**، دار الهدى 2004 بداية من صفحة 110

- عدم الإلمام بتعريف متفق عليه للتاريخ يشكل صعوبة أمام الدارسين والمشرعين
- لا تاريخ من دون تأريخ ومن دون أرشيف معا.
- يشترط في التاريخ التخصص والاحتراف، أي الباحث الأكاديمي، أي منع التطفل على التاريخ من غير المؤرخين.
- لأن التاريخ "يزلق" لأنك قد تكتبه ليكون لك، وإذا به قد يكون عليك.
- فالتاريخ موطن الحرية لمن لا حرية له. ولا وصاية عليه ولا حدود سياسية له ولا لون له. فهو مكسب معرفي للكل أينما كانوا.
- يعتمد التاريخ على المنهج التحليلي (موضوعية.. .)

5- فلسفة التاريخ: [تفعيل الحدث] إبراز الهوية

- مدارس تاريخية؛ دينية وسكونية وعلمية وعَلمانية.
- أهمية تدريس وتشريع التاريخ مشدودة إلى منهج وإيديولوجية السياسي والدارس والمدرس والمشرع
- انحراف في فهم التاريخ وتفعيله، وتوظيفه في المشروع الوطني أدى إلى هشاشة التماسك الاجتماعي

6- استراتيجية التاريخ: [توظيف الحدث] ترسيخ الهوية

- استراتيجية التاريخ تكمن في حسن توظيفه.
- الهدف من تدريس التاريخ تكوين الضمير الجمعي

- في استراتيجية التاريخ تكون المحايلة للمستجدات المحلية والدولية، خاصة خلال مرحلة ما بعد القوميات (Transtionalisme)

- التراث يساوي نصف قيمته، وبحفظه ربع لقيمته وبدراسته تستكمل قيمته. وبتوظيفه تستغل ثماره

- حفظ التراث دلالة وجود وإبداع، والبحث فيه دلالة فكرية حضارية، ورسالة علمية وبعث هوية.

وبعد تقديم هذا المختصر عن أهم المفاهيم المتعلقة بالهوية لنا أن نغتنم فرصة الاحتفال بالذكرى الخمسين لثورة نوفمبر 54 للحديث في هذه الندوة عن محطتين هامتين في التاريخ الحديث والمعاصر اللتين ساهمتا في بلورة الهوية الجزائرية؛ الأولى كانت بمبايعة عبد القادر بن محي الدين أميرا عام 1832. والثانية كانت بنداء أول نوفمبر 1954.

والسؤال الذي يمكن طرحه هو كيف وظفت وثيقتا المحطتين في خطاب الهوية في الجزائر المستقلة؟

في رأيي لم يتم التوظيف الجيد لهاتين المحطتين لترسيخ الهوية الجزائرية وتعميمها لتشمل كل الجزائريين.

ففيما يتعلق بالمحطة الأولى فالمتعارف عليه أن بيعة[1] عبد القادر أميرا على البلاد والعباد تمت أولا بشكل خاص يوم 27 نوفمبر 1832. وثانيا بشكل عام يوم 4 أبريل 1833. وهي ذات قيمة تاريخية كبيرة لكونها ذات مرجعية دينية

1- لمزيد من المعلومات تراجع أعمال الندوة العلمية "**مبايعة الأمير عبد القادر**" التي نظمناها في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، دار الهدى، عين مليلة 2004

إسلامية، نصية وفقهية. ومرجعية ثقافية جزائرية. ومرجعية عربية لغوية. وسياسية شرعية. ونهضوية إصلاحية. إذ أنه من خلال الدراسة لمحتوى البيعة الأولى والثانية تتبين دلالات كثيرة تصب كلها في المرجعية الإسلامية. وقد اهتدت المقامة الجزائرية والثورة التحريرية بهذه المرجعية. مثلما نفهمه أيضا من محتوى نداء أول نوفمبر الذي تتبين فيه دلالات كثيرة[1].

وخلاصة القول إن للهوية أكثر من مرجعية. وهي مرتبطة بتدوين المادة التاريخية ودراستها وبحفظها. فلا هوية من دون أرشيف ومن دون تأريخ. ولا تاريخ من دون أرشيف. ولا فائدة كبيرة من دون استراتيجية للتاريخ. أي من دون الحفظ والتفسير والتفعيل والتوظيف.

1- لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي**، دار الهدى 2004، ص-ص. 33-34 و بداية من صفحة 127

تم هارك ولوفس (Harck Olufs)
الأسير الدانماركي في الجزائر (1708–1754)[1]

محاضرة الأستاذ الباحث الدانماركي رهاينهايمر مارتان (Rheinheimer Martin)

المتخصص في فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر

ألقاها باللغة الإنجليزية مع الترجمة الفورية باللغة العربية

في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية يوم الخميس 27 ماي 2004

ونظرا للقيمة التاريخية التي تناولها المحاضر والمثمنة في معلومات متميزة تبين العلاقات التاريخية بين الجزائر والدانمارك فقد رأيت أن أقدم هذا الملخص.

–)(–

بعد أن رحب رئيس الجامعة الدكتور عبد الله بوخلخال بالأستاذ الضيف شرع المحاضر في إلقاء محاضرته التي دامت 45 دقيقة وهذا محتواها[2]:

كان هارك ولوفس من جزيرة فقيرة هي آمروم (Amrum) كانت ملكا للدانمارك ولكنها هي اليوم تابعة لألمانيا. كان سكانها حوالي 500 نسمة، وكانت مهنتهم الرئيسة ركوب البحر قصد التجارة. وكانت أسرة هارك من كبار البحارة ، إذ كان والده يملك سفينة.

---

1 – تلخيص الدكتور عميراوي احميده

2 – اعتمد الأستاذ المحاضر على مراجع أهمها:

- Pirater og Kristane slaver, Esbjerg, 2003
- Martin Rheinheimer, Der Fremde Sohn, Hark Olufs, Wachholtz, 2003, 227 pages

كان مولد هارك عام 1708 بحسب ما هو مدون على الشاهد المكتوب بالدانماركية المنصب على قبره . المهم كان يرافق والده في البحر، وكانت رحلته الأولى وهو في سن 12. وتجول في بلدان بحرية كثيرة.

وبطلب من قبطان السفينة الألمانية التي كان على متنها هارك سمحت له البحرية الجزائرية العثمانية بالدخول إلى المياه الإقليمية الجزائرية. وفور وصوله إقليم الجزائر العاصمة تم الاستيلاء على السفينة، وتبين أن أمر السماح كان خدعة. فوقع هارك في الأسر وعمره 15 سنة (أي سنة 1724) وبيع هارك في سوق العبيد وانتهى به المطاف أسيرا لدى الباي في قسنطينة (عهد حسن باي بوكمية عام 1713–1736 كلام الملخص) حيث بقي أسيرا مدة 14 سنة. وتولى خلالها مهاما هي رتبة خزندار من عام 1728 إلى عام 1728 مثلما تولى رتبة ضابط بجيش الباي من عام 1728 إلى عام 1832. وتولى رتبة آغا الدائرة من عام 1832 إلى عام 1835. وشارك في الوفد الجزائر الرسمي إلى المغرب الأقصى عام 1724.

كان والده يسعى لافتدائه، وكتب لملك الدانمارك يترجاه المساعدة لكن الملك رفض. ثم وسّط الألمان لفك أسر ابنه، لكن الألمان اشترطوا مقابل وساطتهم الحصول مناطق إقليمية دانماركية، لكن الملك الدانماركي أصرّ على الرفض، وبقي هارك في أسره. فلجأ والده إلى جمع التبرعات من الكنائس. ثم رهن أراضيه، ولم يتمكن من جمع مبلغ الفدية إلا بعد 10 سنوات.

وخلال مدة الأسر تعلم هارك اللغة العربية والعثمانية واللهجة المحلية، بجانب اللغة الدانماركية. وبحكم أنه كان ذكيا جدا ويجيد الرياضيات والصناعة الحرفية وفنون التجارة قربه الباي إلى حاشيته وبالتدريج صار رئيس خدم

الخزناجي. ثم رئيس الحرس ثم مترجما. وتدرج في هذه المناصب، ولقي من المعاملة الحسنة خاصة لما اعتق الإسلام وتزوج بمسلمة من مدينة قسنطينة. وأكمل دينة بالحج رفقة باي قسنطينة خلال موسم سنة 1733. وفي هذا الوقت تعين أول سفير مسلم يمثل دول البحر المتوسط في الدانمارك. فبدأت العلاقات الدبلوماسية تتحسن.

في هذا الوقت وقعت حروب كثيرة بين جيش الجزائر وجيش تونس عام 1735. وقد تخوف هارك من المستقبل، وتخوف من موت سيده الباي الذي كان طاعنا في السن، الذي بوجوده يقترب يطلق سراحه. ولهذا فكر في الهروب، فأرسل زوجته إلى الجزائر العاصمة التي منها يمكن أخذها.

ولكن في النهاية أفرج عن هارك مقابل فدية، فعاد إلى بلاده من دون زوجته، عاد من الجزائر العاصمة عن طريق مدينة ليون، ومنها إلى باريس ثم المانيا ومنها وصل إلى الدانمارك. وكان معه كنز من المال وشيء من الذكريات المادية (حذاء سروال ...) وتزوج وأنجب أولادا.

وحين عاد بدأت مشكلة هارك الحقيقية، وهي أنه عاد وهو المسلم إلى موطنة المسيحي المتشدد، فكان داعية هناك، ولكن كل السكان استنكروا ذلك لقناعة منهم أنه لا يوجد دين آخر غير المسيحية، فحاول سكان الجزيرة وعلى رأسهم الملك والراهب إعادة دمجه في المسيحية وتعميده وهو في سن الثلاثين من العمر.

وبرغم هذا كله يمكن القول إنه كان في الدانمارك سفيرا للجزائر لأنه عرف السكان هناك بالجزائر والجزائريين، خاصة وأنه كان يحكي ويحكي

للسكان ليقنعهم بإسلامه. وألف كتابا عام 1747 باللغة الدانماركية عن الجزائر وعن قسنطينة. فهو مصدر نادر. وتوجد منه نسختان فقط.

وكانت العلاقات بين الجزائر والدانمارك متوترة إلى أن كانت أول معاهدة رسمية بينهما عام 1746 والتي كان الفضل فيها لهارك.

وتوفي هارك عام 1754. وبعد موته صارت قصته حكاية ممزوجة بالأسطورة والإشاعات.

وفور انتهاء عرض المحاضرة دارت مناقشة علمية من قبل أساتذة وطلبة جامعة الأمير عبد القادر وضيوفها. وأهديت للأستاذ المحاضر في حينه صور فوتوغرافية وشريط مسجل لما دار في محاضرته. وقد أعجب وسرّ كثيرا وتمنى العودة كأستاذ زائر إلى جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

مذكرات تيدنا مصدر نادر في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني[1]

مقدمة

ترك الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال العهد العثماني مادة خبرية عالية القيمة. ومنهم تيدنا الذي كان يتنقل تاجرا بحارا بين إيطاليا ومارسيليا. ووقع في قبضة القرصنة الجزائرية أسيرا، وانتهى به المطاف في الغرب عند الباي محمد الكبير فعينه خزندارا (وزيرا). ثم افتدَى نفسه وأصبح في حرا حرا. ولاه نابليون بونابرت في مصر نائب قنصل فرنسا. ووظف في الشؤون الخارجية الفرنسية مستشارا.

فقد عاش حياة ثرية بالأحداث؛ دونها في مذكرات. وقد درسناها، ونأمل أن ننشرها في كتاب مستقل قريب، قد يكون له عنوان هو "**الجزائر في أدبيات الرحلة والأسْرِ**". ونظرا لأهمية هذه المذكرات نحاول أن نقدمها مبدئيا في موضوع يتأسس من أربع نقاط:

1 – ترجمة حياة تيدنا

2 – الجزائر في مصادر الأجانب

3 التعريف بالمذكرات ومحتواها

4– القيمة التاريخية للمذكرات

---

1 – نشر هذا الموضوع في **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، عدد 15، فيفري 2004

1 – ترجمة حياة تيدنا

ولد تيدنا (THEDNAT) صاحب هذه المذكرات[1] سنة 1758 في أوزيس (Uzes) من عائلة كاثوليكية ميسورة الحال. و لم تعجبه المدرسة الكاثوليكية ففر منها وابتعد عمن حاولوا إعداده للرهبنة. فجنح إلى الحياة العسكرية وانضم إلى فيلق في كورسيكا. لكنه كره الحياة العسكرية وتخلص منها. ولجأ إلى الحياة المدنية فعمل كاتبا لوكيل مقاطعة. ولكن حبّه للأسفار قاده نحو ليفورن وقديسا (Cadix) حيث عاش في متزل أحد أقرباء أبيه.

مارس تيدنا مهنة تجارة البحر. وخلال رحلة بحرية كان ينقل خلالها براميل الخمر من مالاقا إلى مرسيليا على متن سفينة إسبانية فوقع في قبضة قراصنة البحر الأتراك العثمانيين. ومن حسن حظه أنه اشتراه باي معسكر الذي كان في حاجة ماسة إلى شخص متعلم ومخلص لإدارة شؤونه.

ونظرا لما كان يملك تيدنا من إمكانيات من حيث التكوين العلمي والدراية لكثير من العوامل المحركة للحياة، فقد فاز برضى الباي الذي لم يبخل عليه جزيل العطاء والحظوة؛ إذ خلال ثلاثة أعوام وسبعة أشهر قضاها أسيرا وحرا في نفس الوقت أصبح تيدنا جزندار باي الغرب محمد الكبير. وقد رافق تيدنا سيده في كل تنقلاته[2]. وعلى هذا الأساس فمذكراته تعد قيمة تاريخية عالية.

ومن هنا يبدأ فصل من فصول قصة تيدنا، فصل النضال والإصرار؛

1– مذكرات تيدنا غير المطبوعة محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس، مخطوطات ف.أ فرنسا رقم 10.877. وتحتوي على 140 صفحة.

2– خاصة أثناء الرحلة المشهورة برحلة باي الغرب محمد الكبير

نضال تيدنا من أجل حريته وعودته إلى أوروبا. وإصرار الباي على التمسك به وعدم قبول فديته.

وكيفما كان الحال فقد أكسبته مغامراته ومعاملاته مع أهل الجزائر أشياء كثيرة قلما وجدنا غيره قد حصل عليها؛ إذ كان يجيد أكثر من لغة كالأسبانية والإيطالية وثقافتيهما، ثم أضاف إلى رصيده معالم اللغة العربية. وقد سهل عليه كي يكتب مذكراته هذه.

وبعد حصوله على حريته وعودته من الجزائر عام 1783 اشتد به الحال فمرض، ووجد نفسه في إحدى مستشفيات زوريخ (Zurich) حيث كتب مذكراته هذه سنة 1785.

وقد أفاد تيدنا رجال السلطة الفرنسية بمعلومات تتعلق بأحوال الجزائر وبكيفية احتلالها إذ قدم تيدنا مذكرة عام 1802 إلى تاليران ذكر فيها أعمال القراصنة ووحشية "البربريين". وبين أن سلطة الداي والبايات الثلاث قائمة على أقلية من العسكريين ذوي الامتيازات (قطاع طرق حقيقيون ومخربو البلاد) وأن القوّة يدعمها الداي المستبد في الجزائر وقائمة على جُبن الدول التجارية المستعدة دائما لدفع الإتاوة[1]. وأن حملة عسكرية قوية ستجعلها سيدة البلد ولا تكلف شيئا للحكومة، لأن كنز الداي والاستيلاء عليه يغطي كل المصاريف.

اقترح إرسال جيش إلى ميناء تنس ثم محاصرة الجزائر العاصمة بالاتفاق مع الأسطول البحري ليتمكن من فرض أمر الواقع على داي الجزائر كي يسلم

1- كانت دول كثيرة تدفع الضرائب لإيالة الجزائر، إذ قدرت هذه الضرائب عام 1822 بـ 126 ألف بياستر أي بنسبة 29% من مداخل ميزانية الخزينة الجزائرية. ينظر: **مذكرات وليام شالر**، تعريب إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت. الجزائر 1982، ص - ص.69-70.

الذهب وكل المراكب الحربية، فتتمكن فرنسا بعدها من جعل الجزائر دولة متحضرة وتجارية[1].

نشرت نسخ عديدة من هذه الوثيقة، وحللت في كتاب شارل رو[2]. وبرغم أن الحملة العسكرية لم تتم في عهد نابليون بونابرت إلا أن ما تضمنته المذكرة من المعلومات كانت مفتاحا تمكنت به السلطة الفرنسية من الدخول إلى أبواب الجزائر العاصمة عام 1830. كانت هذه المذكرة وغيرها عاملا مهما وفرت معلومات استخبارية.

وبرغم ما قدمه تيدنا من نشاط ومغامرات لكنه عاش أواخر حياته فقيرا، خاصة بعد أن أحيل على التقاعد سنة 1825.

2 – الجزائر في مصادر الأجانب

دراسة تاريخ الجزائر بداية من القرن السادس عشر يكون بالاعتماد على ما كتبه الأوروبيون؛ رحالة وأسرى ودبلوماسيون، ورجال دين. وكذلك على ما كتبه الأتراك العثمانيون من حكام ومفتيين. وعلى ما كتبه العرب رحالة وعلماء.

فيما يتعلق بما كتبه الأوروبيون يتبين أن صورة الجزائر لم تكن واضحة لدى الأوروبيين حين كانوا يطلعون المصادر العربية والتركية العثمانية. وبفضل

1- فكانت هذه المذكرة الأصل في البحوث الأولى التي قامت بها وزارة الحربية في إمكانية القيام بحملة للاستيلاء على الجزائر. يراجع:

Roux (Ch), **France et Afrique du Nord avant 1830**, Félix Alcan, 1932, Paris P543

2 - Roux (Ch), **France et Afrique du Nord avant 1830**, p. 413.

ماكتبه الأوروبيون بأنفسهم اتضحت صورة الجزائر. إذ سبق لنيكولاي (Nicolay) أن زار الجزائر عام 1551 وهو من الجغرافيين. وكان من أفراد حاشية الملك هنري الثاني، حيث قدم وصفا لمدينة الجزائر وبجاية وعنابة وهو في طريقه إلى اسطانبول[1].

وقام الدكتور شو (Shaw)[2] الإنجليزي برحلة إلى الجزائر (1720–173)[3]. وزار جان أندري بايسونال (Peyssonnel) الشرق الجزائري خلال عامي 1724 – 1725[4]. وكذلك بريس[5]. وأيضا فرنثيسكو خيمينيث (مولود عام 1685)[6].

1– ألف كتابا بعنوان:

Les quatre premiers livres des navigations orientales, Lyon 1568

2 – ترجمت هذه الأعمال إلى الفرنسية عام 1743 بعنوان:

Voyages de Monsieur Shaw dans la Régence d'Alger

وترجمت عام 1930 وبعنوان:

Shaw (docteur), **Voyage dans la Régence d'Alger**, traduit de l'Anglais par Mac Carthy, Paris 1830.

3– لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **علاقات الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي**، مطبعة البعث، 2002، ص– 15 وما بعدها.

4- Peyssonnel, et, Desfontaines, **Relation d'un voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger**, 2 t, Gide, Paris 1838.

5- Bruce (J.), **Voyages aux sources du Nil, pendant les années 1768-1772**, traduit par Castera, Paris, 1790-1791, 5 volumes. (cité par Marcel Emerit, in. R.A. année1948)

6– أهمية أعمال خيمينيث ليست في حجم المادة التي تركها وإنما في ما تضمنته من معلومات دقيقة بحكم مركزه الديني ووظيفته الرسمية الدينية التي تولى من خلالها مداواة الأسرى الأسبان وافتدائهم، والتفاوض مع رجال السلطة العثمانية في كل ما يتعلق بأمرهم. إذ هو الذي أسس مستشفى سان خوان دي ماتا في تونس لهذا الغرض. لمزيد من المعلومات يراجع: ميكال = =دي إيبلزا والهادي الوسلاتي، "ملاحظات أب أسباني يزور وهران في عهد مصطفى بوشلاغم"،

وتعد أعمال فانتير دي بارادي ذات قيمة عالية. وقد نشرت في المجلة الإفريقية[1]. وزار العالم فانتير دي بارادي الجزائر عام 1789[2]. أما أعمال هايدو[3] فهي ذات قيمة علمية راقية؛ قدمها باللغة الأسبانية عام 1608 وترجمت إلى الفرنسية[4]. وقام قبله تاسكا الإيطالي برحلة مرافقا السفير الفرنسي دي بريف(De Brèves) من مصر إلى الجزائر عام 1606[5]. وقدم من جهته لوجيه دي تاسي دراسة قيمة عن الجزائر ونشرت عام 1725[6]. ويعتبر ما كتبه الألماني سيمون بفايفر (ولد سنة 1810) عن الجزائر من المصادر الهامة في تاريخ الجزائر أواخر العهد العثماني، وبداية الاحتلال الفرنسي[7]. ونفس الشيء تقريبا حدث مع مواطنه الألماني

المجلة التاريخية المغربية، عدد 12، تونس 1978، ص-ص. 191-201

1 – لمزيد من المعلومات يراجع:

Venture De Paradis, « Alger au 18è siècle », présentation de Fagan (E.), in. **R.A.** no 39, année 1895, p-p. 265-314. et, R.A. no 40, année 1896, p-p. 33-78, 256-277.

2– يبدو جانب من هذه الإحصائية غير دقيق بالنظر إلى تناسب عدد مساكن اليهود ألـ 180 مع عددهم البالغ 7000 فرد، لأنه على أساسه يكون قرابة 40 فردا في البيت الواحد.

3– لمزيد من المعلومات يراجع:

Fray diego de HËdo, « De la captivité à Alger », traduction de l'Espagnole par Moliner-Violle, in. R.A. no 39, année 1895, p-p.54-103, 199-258, 321-367. no 40, année 1896, p-p. 5-32. no 41, année 1897, p-p. 153- 184.

4 –**R.A.** année 1880

5– لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج. 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ص-ص. 174-176.

6– لمزيد من المعلومات يراجع:

Laugier de Tassy, **Histoire du Royaume avec l'état présent de son gouvernement**, Amesterdam, 1725.

7– لمزيد من المعلومات يراجع: سيمون بفايفر، **مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر**، ترجمه من

فندلين شلوصر الذي بقي مدة 5 سنوات في الأسر حيث فك سبيله 1837[1].

وقد اهتم **الروس** والأمريكيون أيضا بالجزائر؛ إذ ألف ضابط روسي كتابا دون فيه معلومات قيمة عن الجزائر عام 1787[2].

أما الأمريكيون فقد كتب كثيرون ومنهم القنصل وليام شلر (1816-1824) الذي ترك لنا مادة تاريخية عالية القيمة عن الجزائر وعن حملة إكسماوث البحرية ضد الجزائر عام 1816[3].

وقد وقع كاثكارت وهو أمريكي أسيرا بعد الاستيلاء على أول سفينة أمريكية في جوياليا عام 1785. وهو الذي ساهم في وضع اتفاقية أبرمت بين الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية[4].

وكتب كثير من **الإنجليز** من جهتهم عن الجزائر، نذكر منهم مورقان الذي

الألمانية، أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1974.

1- لمزيد من المعلومات يراجع: فندلين شلوصر، **قسنطينة أيام أحمد باي** (1832-1837)، ترجمة من الألمانية، أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980

2- لمزيد من المعلومات يراجع:

Marcel Emerit, « Description de l'Algérie en 1787, par l'officier russe Kokovtsov », in. **R H M**, no 4, Tunis 1975, p-p 209-212

3- لمزيد من المعلومات يراجع :

Shaler William, **Sketches of Algiers**, Boston, Century 1826

وقد تفضل إسماعيل العربي بترجمة مذكرات وليام شلر إلى اللغة العربية ونشرها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر عام 1982.

للتعرف عن العلاقات الأمريكية الجزائرية يراجع: أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ص-ص. 281- 311

4- لمزيد من المعلومات يراجع: **مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**، ترجمة إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.

عاش سنوات عديدة في الجزائر[1].

وزار كذلك الجزائر المؤرخُ الأسباني مارمول[2]. ومكث رهباندر في مدينة وهران عام 1788 أيام الاحتلال الأسباني لها، وهو قنصل ألماني، حيث خصص جزءا من مذكراته للحديث عن الإدارة التركية. وعن الحياة الاجتماعية الجزائرية[3].

وتتبين من خلال هذه الرحلات والمذكرات أهمية مدينة الجزائر في ذاتها، وأهميتها في نظر الأجانب، لهذا كانت تتعرض باستمرار إلى هجمات بحرية من دول أوروبية مختلفة. هذا عن الرجال الأسرى، هل يمكن الحديث عن نساء أوروبيات أسيرات في الجزائر؟

جاء في دراسة أبي العيد دودو أن "امرأة سويدية عاشت في الجزائر مكرمة مبجلة، انتقلت إلى إستامبول قبل الاحتلال (الفرنسي) بمدة قليلة"[4]. وقد أفادنا ميشال دي غراس[5] (Michel de Grèce) في روايته "ليلة القصر" بمعلومات قيمة على لسان فتاة لم يتجاوز عمرها 15 سنة هي من جزيرة تابعة للنفوذ

1- لمزيد من المعلومات المستفيضة عن هذا الكتاب الذي طبع عام 1731 في لندن يراجع: أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج. 1، ص-ص. 313-327

2- وترك لنا مادة خبرية عالية القيمة للتعرف عنها ينظر:

Marmol Carvajal, **Description générale de l'Africa**, traduit en Français par M. Perrot d'Alblaucourt sous le titre: L'Afrique de Marmol,

3 - ترك مذكراته بعنوان:

Rehbibder Von, **Nachrichten und Memer Kungen über den Algierscben** Staat, Altona 1789-1800.

4- **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان**. ترجمه من الألمانية، أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980، ص. 9

5 - Michel de Grèce, **La nuit du serial**, Olivier Orban, 1982

الفرنسي وقعت في قبضة "القرصنة" الجزائرية، فأهداها داي الجزائر إلى السلطان العثماني في أسطنبول، حيث حكت حياة الأسر في قصص مشوقة، وفي غاية من الغرابة والدقة

3– التعريف بالمذكرات ومحتواها

كتبت مذكرات تيدنا في زوريغ عام سنة 1785 على شكل اعترافات منه. إذ عرض فيها بشجاعة أخطاءه دون أن يلتمس الرأفة من أحد. وبرغم ما عرفه من مغامرات كادت تقضي على حياته فقد ظل شجاعا نشيطا في عمله ومرتبطا دائما بدينه وبعائلته وبوطنه رغم حمية دمه التي دفعته إلى أفعال طائشة متعددة كان يدفع ثمنها باستمرار.

ومن خلال القراءة لهذه المذكرات يتبين أن تيدنا لم يكن كاتبا لامعا، و لم يشتهر في أي شيء بارز. ولكنه كان من بين أولئك الذين حاولوا فهم العالم الإسلامي. لذلك فإن رواية مغامراته في بلاد الجزائر تعد وثيقة ثمينة بالنسبة لمؤرخ الجزائر خلال الحكم التركي العثماني. مثلما تذكّرنا مذكراته بروايات كبار الأدباء.

وجاء ت هذه المذكرات مثلما عرضها مارسيل إمريت[1] في أربعة فصول هي:

– مذكرات تيدنا (Mémoires de THEDENAT)

– في قصر باي معسكر (A la cour du Bey de MASCARA)

1– قدم ودرس مارسيل إمريتهذه المذكرات بعنوان:
« Mémoire de Thédnat, écrites à Zurich en 1785 », in. **R.A**. année 1948, p-p. 157-183, 330-363-

- مغامرات الحريم (Aventure du Harem)

- عقبات في طريق الحرية (Les difficultés d'une libération)

وقد عرض في هذه المذكرات رواية أسره. وبيعه في السوق مثلما تباع الحيوانات. ثم كيف اشتراه يهودي[1] ثم باعه لوكيل محمد الكبير باي معسكر. وصار مدير أعماله برتبة خزندار (وزير)، فكانت له مغامرات في القصر مع الحريم. وعلاقات متنوعة مع علية القوم الذين لهم علاقة ببلاط معسكر. وكيف تمكن من إدارة شؤون بايليك معسكر، خاصة أثناء الرحلة لجمع الضرائب، أو أثناء الرحلة إلى الجزائر العاصمة لتأدية الدنوش. وكيف تمكن من افتداء نفسه بإصرار كبير. ولم يتنحى عن دينه المسيحي بالرغم من الوعيد والتهديد. ثم عاد إلى فرنسا بعد أن انتصر على كل العراقيل التي واجهته. بعدها عرض هذه الأحداث كلها بأسلوب مشوق ومثير. ونأمل أن نقدم هذا بشيء من التفصيل في كتاب مستقل. مثلما نلح على القراء وبخاصة الباحثين من الطلبة الاطلاع على هذه المذكرات.

4 القيمة التاريخية للمذكرات

من خلال محتوى هذه المذكرات تتأكد حقائق كثيرة منها: تكاد تكون مذكراته الوحيدة التي تعطينا معلومات عن المنطقة الغربية من الجزائر في القرن الثامن عشر، ولهذا فهي جديرة أن تكون موضوع بحث معمق.

وتتبين قيمة هذه المذكرات فيما قدمه تيدنا من معلومات عن حياة المجتمع الجزائري في الداخل بعيدا عن الساحل، على خلاف ما هي عادة تجار

1- من الغرابة بمكان وحسب ما هو معلوم أن يهود الجزائر ليس من حقهم المتاجرة بالعبيد، ولكن تيدنا يؤكد عكس هذا.

الوكالة الأفريقية والرحالة الأوروبيين الذين دونوا معلومات عن المدن الساحلية فقط دون أن يمدونا بمعلومات عن الداخل. لكن تيدنا عاش فترة تزيد على ثلاث سنوات ونصف في بايليك الغرب (معسكر) حيث شغل هناك منصبا ساميا؛ الأمر الذي ساعده على تقديم معلومات فريدة من نوعها.

وبحكم أن تيدنا كان أسيرا وناقص التجربة لذلك لم يلتقط معلومات محددة وموسعة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للأهالي، ومع ذلك يبقى له الفضل في تعريفنا بأشخاص لم يحدد صورهم أي شاهد عيان آخر؛ سواء من الرحالة أو الأسرى، خاصة حين عرفنا بشخص محمد الكبير باي معسكر الذي أخذ وهران من الأسبانيين.

لذلك فالمؤرخ الذي اكتفى لحد الآن بجمع معلومات محدودة عن الجزائر في القرن الثامن عشر هو محظوظ حين يطلع على رواية تيدنا الذي كان صادقا في ذكر الحقيقية الدقيقة من دون أن يكون هادفا في إثراء نفسه أو تقديم خدمة في وقتنا الحالي بعد أكثر من قرنين وعقدين من الزمن.

إن الباي محمد الكبير لم يُعرف لحد الآن سوى عن طريق كتاب بالعربية مثل الجماني[1]. وعلى ضوء ما ورد من معلومات في مذكرات تيدنا يدفعنا الشك في نقص ما قدمه أحمد بن محمد بن علي بن سحنون من معلومات، على الرغم من أنه يعد من بين المقربين للباي حين بالغ في وصف محاسن سيده. ولكن دي

---

1 – لمزيد من المعلومات ينظر :

Gorguos (A),: « Notice sur le Bey d'Oran », in. **R.A**. no 2, année 1857-58, p-p. 28-46, 223-241.

– « Expédition de Mohammed El-Kebir, Bey de Mascara, dans les contrés du sud », **R.A**. no 4, année 1859-60, p-p. 347-357

فونتين ذكر هو الآخر ذكاء هذا الباي والرقة التي كان يعامل بها العبيد المسيحيين الذين فضلوا أن يحيطوا به، وهو ما أكدته رواية تيدنا التي يفهم منها أن باي معسكر كان رجلا كريما وعادلا وشديد العنف مع اللصوص، وصارما، وليس لين الجانب في حالة ما إذا حصل تعدي على الآداب الإسلامية. وهو نشيط في الحروب؛ الشيء الذي لم يمنعه من إدارة الإنتاج والتجارة وحتى القضاء. وكان تيدنا قد تأثر كثيرا بأبهة بلاط معسكر حيث تظهر الحياة سهلة. فتشرب فيها الخمور الجيدة التي يبيعها العبيد تحت الأروقة. ولم يمتنع محمد الكبير من شربها.

والشيء الذي يجب التأكيد عليه هو انعدام التعصب لدى هذا الباي، فقد سبق له أن زار ليفورن ومرسيليا، وعلى أساسها تمكن من تعلم اللغة الفرانكية والإيطالية. وهو كثير السعي في البحث عن مساعدة المسيحيين لأنه يقدر فيهم إجادتهم للتسيير الإداري. ويضيف إلينا تيدنا معلومات عن السير الجيد لجهاز البريد الذي كان يعمل بإحكام في عهد الداي، بدليل أن تيدنا تمكن من الاتصال بعائلته.

وذكر تيدنا أنه كان يشرف على تصدير الحبوب والصوف والشمع من مستغانم وهو الميناء المهم للبايلك لأن وهران كانت لا تزال في يد الأسبان. وذكر أنه في بعض السنوات كانت تصل الشحنات المصدرة إلى عشرة مراكب فرنسية وإنكليزية. ويقول لنا فانتور دي باردي[1] إنه في سنة 1787 شحن من تلك المنتجات ستة وعشرين مركبا من ميناء أرزيو مما يدل على تطور كبير في

1 -Venture De Paradis, « Alger au 18è siècle », présentation de Fagan (E.), in. **R.A.** no 39, année 1895, p-p. 265-314.

الحياة الاقتصادية في بلد يتأسف فيها تيدنا على خراب سهولها الخصبة الشاسعة المحرومة من ري المياه.

ويؤكد تيدنا رأيا مهما يتعلق بقيمة الدنوش السنوي التي كان يقدمها باي الغرب إلى الداي. وتيدنا في هذا الرأي أقل تحديدا من فانتور دي بارادي الذي حدد قيمة هذا الدنوش ب 666.000 فرنك في العام.

وقد ذكر الشريف الزهار أن الباي عندما يأتي بالدنوش يكون مرفقا بتحف وأموال وهدايا كثيرة من الخيل العتاق والعبيد والمصوغ، والأثاث الفاخر محمية بجيش كبير من اتباعه وكبراء النجوع وقواد وأغوات راكبين الخيل ذات السروج الذهبية، وعليهم لباسهم الفاخر[1].

ويتبين من خلال هذه المذكرات أن ظاهرة القرصنة وشراء الأسرى لم تعد تشكل في فترة حكم محمد بن عثمان باشا داي الجزائر إلا ثروة ضئيلة لكن الدخل من الخيرات الزراعية المتطورة كان كبيرا.

وقد مدح تيدنا الباي محمد الكبير على أساس أنه الشيخ الحاكم الجميل ذو اللحية البيضاء التي شبهها بالمرمر المصقول والدال على ذلك أنه تلقاه بودكبير، واشتهر بالحزم والإنصاف. إلى درجة مثلما يقول تيدنا يمكن القول إن الربع الأخير من القرن 18 يعد بداية لفترة نهضة جزائرية ولكن هيمنة القراصنة والجندية أدت إلى انتشار فوضى خطيرة. وكان باستطاعة هذه النهضة أن تنمو ذاتيا لو أن الظروف السياسية الخارجية كانت أفضل.

1- مذكرات محمد الشريف الزهار، تقديم أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص. 36

ومهما يكن فإن مثل هذه المذكرات تدعونا إلى طرح أسئلة كثيرة حول تاريخ الجزائر العثمانية. مثلما تساعدنا على وضع إجابات معينة عن أسئلة عالقة. مع التنبيه والتأكيد على أننا أخذنا من مذكرات تيدنا الجانب المتعلق بمغامراته في الجزائر، من دون التطرق إلى مذكراته في فرنسا وسويسرا.

رحلات استكشافية
في الجنوب الجزائري[1]

مقدمة

يحتل موضوع أدب الرحلة مكانة هامة في الدراسات الحديثة؛ العربية منها أو غير العربية؛ وهذا لتعدد فوائده، وتنوع مقاصده، وكثرة نتائجه. وإن الاهتمام به يعد مسؤولية كبيرة. لأن الرحلات هي أخبارٌ دونها شهود عيان، خاصة ما يتعلق منها بتاريخ الجزائر. فهي بالاختصار المفيد مصادر أساسية لا يمكن للباحث النزيه أن يستغني عنها.

والرحلة أنواع. منها الرحلة العلمية. والرحلة التجارية. والرحلة الحجازية. والرحلة الخيالية. ويمكن حصرها في نوعين، الأول رحلة داخلية؛ كانت من أبناء بلاد الجزائر أو من المغامرين إلى داخل البلاد. والنوع الثاني خارجي؛ كان من أبناء البلاد أو من غير أبناء البلاد إلى خارج البلاد. فرحلة أبناء البلاد كانت إلى الحجاز، وإلى البلاد الإسلامية. وإلى البلاد الأوروبية. وإلى أنحاء كثيرة من الجزائر.

والذي يهمنا في هذا المقام هو الرحلة الداخلية، وبالتدقيق الرحلة إلى الجنوب الجزائري. والسؤال الذي يمكن طرحه هو: مَن مِن المغامرين الذين قاموا بهذه الرحلات؟ وما هي أهدافهم منها؟ وما هي أهم النتائج التي حصلوا عليها من هذه الرحلات؟ وما هي القيمة التاريخية لهذه الرحلات؟ للإجابة على مثل هذه الأسئلة فضلنا أن يكون حديثنا من خلال النقاط الآتية:

---

1 – نشر هذا المقال في مجلة دراسات أدبية وإنسانية، بمخبر الدراسات الأدبية والإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد 1 الجزائر 2004

1 – موجز عن أهمية أدب الرحلة في التاريخ

2 – أهمية الرحلة إلى الجنوب الجزائري

3 – نتائج الرحلة إلى الجنوب

1 – موجز عن أهمية أدب الرحلة في التاريخ

ففيما يتعلق بأهمية الرحلة في التاريخ فالكلام يطول. وحين يكون الكلام عن أية رحلة يدرج فيما يعرف بأدب الرحلة، الذي يمكن تحديده بالقول: إن أدب الرحلة "هو ما يمكن أن يوصف بالواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلاد العالم ويدون وصفا لها يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير"[1].

ويمكن القول أيضا إن الرحلة نوعان؛ الأول هو رحلات الواقع المحسوس. ففي هذا النوع تمتزج فيه المشاعر وتتولد المعاني الدينية والاجتماعية والفكرية الإنسانية. والنوع الثاني هو رحلات الخيال مثل رحلة المعري في رسالة الغفران، ومثل رحلة ألف ليلة وليلة. ففي هذا النوع يختلط فيه الإنس والجن، والواقع بالخيال.

وموضوع أدب الرحلة، أو الرحلة الأدبية شيق وهام جدا. فأغلب المخزون الفكري الإنساني هو ناتج عن أدب الرحلة. لأن كثيرا من الشعراء والمفكرين والحكماء أنتجوا فكرا من رحلاتهم، وبذلك يكونون قد أسسوا علاقات تواصل بين الشعوب؛ قديما ووسيطا وحديثا، أي بين الشعوب العربية

1– أنجيل بطرس، "الرحلات في الأدب الأنجليزي"، **الهلال**، عدد 7 مصر 1975، ص. 52

عهد الجاهلية، والمصرية عهد الفراعنة، والفارسية عهد الأكاسرة، والرومانية عهد القياصرة، والأوروبية عهد الملوك والإقطاع. فكان الرحالة سفراء، وعامل تأثير وتأثر في الفكر والأدب والفن. لأن الرحلة كانت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام. مثلما كانت الرحلة إلى الكعبة الشريفة من مختلف أنحاء.

فمن خلال ما تركه الرحالة من معلومات فإن الفاتحين المسلمين كانوا على دراية بأحوال بلاد المشرق قبل فتحها. مثلما كانت شعوب تلك البلدان على دراية بأحوال الجزيرة العربية قبل الفتح الإسلامي. إذ كانت رحلة الشاعر أبو دلف بن المهلهل الذي زار الهند وأفغانستان وألَف كتاب عجائب البلدان. مثلما كانت رحلة الريحان محمد البيروني الذي كتب تاريخ الهند. والمسعودي الذي كتب مروج الذهب، وغيرهم مثل ابن جبير، وابن بطوطة، وابن خلدون، وحسن الوزان. فيكون الرحالة العرب قد ساهموا في نقل معالم الحضارة الإسلامية إلى بلاد أوروبا قبل أن ينتقل الأوروبيون إلى البلاد الإسلامية.

مثلما كان رحالة الغرب من أوروبا على دراية بمواطن البلدان قبل احتلالها. مثلما كانت الشعوب المستهدفة تعرف شعوب البلدان الغازية قبل وصولهم لها.

فبواسطة هذه الرحلات كانت شعوب العالم على صلة فكرية وثقافية منذ القديم قبل أن يكونوا على صلة سياسية أو اجتماعية أو دينية. ولكن الذي حدث أن الأوروبيين هم الذين وظفوا أدب الرحلة واستفادوا منه كثيرا. وكان في مقدمة المستفيدين المستشرقون، ورجال الاستعمار الاستيطاني.

وقد بدأ أدب الرحلات في العصر الحديث مع حركة البعث والتنوير، فهو يعكس من جهة أخرى صورة التخلف والجمود والسكون الموجودة في إفريقيا أمام صورة التقدم الصناعي والعمل العلمي الدؤوب.

ولهذا يمكن القول إن رحالة المشرق مثل أدباء المهجر إلى أوروبا وأمريكا. وعلماء المغرب والأندلس الذين كانوا يتناقلون الأخبار من زمن إلى آخر. ومغامرو الغرب الذين كانوا يكتشفون المناطق النائية، إن هؤلاء الرحالة قد ساهموا في نقل علوم ومعارف المغرب والمشرق والغرب فكانت ولا تزال تنقل وتروى بالسند. ولهذا فأدب الرحلة ثري وفريد من نوعه من حيث توفر المادة الخبرية المصدرية.

2 – أهمية الرحلة إلى الجنوب الجزائري

كانت رحلات كثيرة إلى الجنوب الجزائري خلال العهد العثماني، نذكر منها رحلة محمد الكبير باي بايليك الغرب الجزائري، التي كتب عنها ابن هطال[1]. ورحلة أبو سالم العياشي إلى الصحراء الجزائرية حيث وصف لنا مواطن كثيرة مثل تماسين وعين ماضي.

وفي فترة الاحتلال الأوروبي فقد كان الاهتمام الأوروبي كبيرا بالصحراء الجزائرية[2]. هذا الاهتمام الذي كان سابقا عن الاحتلال الفرنسي للجزائر، والذي كان في إطار التنافس الدولي على إفريقيا في نهاية القرن 18 خاصة بين

1– تحقيق محمد بن عبد الكريم القاهرة 1969

2– ساهم الدكتور يحي بوعزيز بدراسات كثيرة عن الجنوب الجزائري وقدمها في ملتقيات كثيرة. منها ما قدمه في ملتقى الفكر الإسلامي الثالث المنعقد في تمانراست عام 1979

كل من ألمانيا وبلجيكا وهولندة وبريطانيا وفرنسا. لأن بريطانيا سعت لتأسيس مواطن نفوذ لها انطلاقا من منابع النيل. وبواسطة إقامة الشركات منها شركة شرق إفريقيا. بادّعاء أن تلك الكشوفات في إفريقيا هي علمية وخدمة للإنسان. وقد كان التفاوض بين هذه الأطراف حول اقتسام مواطن النفوذ؛ ومن نتائج هذا التفاوض أن تم عقد اتفاقية بين بريطانيا وفرنسا عام 1916 حول اقتسام الكامرون. وفور احتلال فرنسا للجزائر جددت اهتمامها بالصحراء الجزائرية. ووجهت رحلات استكشافية متعددة.

ويمكن تسجيل البداية القوية للرحلات الاستكشافية الفرنسية في الجنوب الجزائري بتأسيس لجنة الاكتشاف العلمي من قبل السلطة الفرنسية عام 1837 حيث شكل القرار الوزاري رسميا عام 1839 هيكلة هذه اللجنة بـ21 عضوا أغلبهم من أكاديمية العلوم وأكاديمية الآداب والفنون و"الكليات" العسكرية. أي أنهم من مختلف التخصصات العلمية (آثار، جغرافيا، أثنوغرافيا، تاريخ، طب، اقتصاد، فلاحة...)[1].

وقد نتج عن أعمال هذه اللجنة العلمية طبع ونشر عديد من المؤلفات والمجلات والنشريات، شملت مختلف النواحي المتعلقة بالجزائر وبالجزائريين. وكانت الرحلة العلمية الاستكشافية من الوسائل الهامة التي قدمت مادة خبرية عالية القيمة.

1-وقد عدد أبو القاسم سعد الله مختلف التخصصات العلمية هذه التخصصات بـ 19 تخصصا. ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 6، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص. 82

وفيما يتعلق منها بالجنوب الجزائري فقد سبق أن تحدثنا عن اهتمام الأوروبيين بهذه المنطقة[1]. حيث تبين أن السياسة الفرنسية كانت على دراية كبيرة بأهمية الصحراء، وأن قناعتها كانت كبيرة في أن بقاءها في الجزائر مرهون باحتلال الصحراء. ولتحقيق هذا الهدف طبقت السلطة الفرنسية سياسة معينة تمثلت في إسناد إدارة بعض المناطق في الصحراء إلى شيوخ جزائريين موالين لها. وتمثلت أيضا في توسيع دائرة الحملات العسكرية في الجنوب الجزائري، بجانب تشجيع الهجرة المدنية الأوروبية إلى هذه المنطقة. ومراسلة كبراء القوم لكسبهم إلى الصف الفرنسي. وتشجيع الرحلات العلمية والتجارية إلى هذه المنطقة. ثم القيام بحملات عسكرية التي كانت بمثابة الرحلات الاستكشافية. ويمكن تسجيل أول حملة عسكرية بالتي كانت إلى بسكرة عام 1844. والأغواط عام 1844 ثم إلى الزعاطشة عام 1849. ثم تتالت الحملات إلى مختلف أنحاء الصحراء. وكان يرافق تلك الحملات مغامرون ومستكشفون علماء. وتوالت الرحلات التجارية ومنها التي قام بها غارسان عام 1848 وغيره كثيرون[2].

بجانب هذه الحملات العسكرية والرحلات التجارية كانت رحلات علمية منها:

– رحلة حمدان خوجة الجزائري الذي يمكن اعتباره أول جزائري ساهم بكتاب هو الأول في البلاد العربية خلال الاستعمار الفرنسي هو كتاب المرآة. صحيح أنه لم يقم برحلة إلى الجنوب الجزائري لكنه كان على دراية بها

1– يراجع ما كتبناه في: **من الملتقيات التاريخية الجزائرية**، دار البعث، قسنطينة 2001، بداية من صفحة 151 .

2– لمزيد من المعلومات عن مثل هذه الرحلات يراجع ما كتبناه في: **من تاريخ الجزائر**. ص. 146.

وبأحوالها وقدم معلومات هامة في كتابه هذا عن الجزائر خلال رحلته إلى فرنسا عام 1833 استفاد منها الأوروبيون.

– رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي[1] إلى الصحراء، التي ما تزال غامضة. فعلى رأي أبي القاسم سعد الله أن معلومات هذا الرحالة هامة، ولكننا مازلنا في حاجة إلى معلومات إضافية عنه. فقد جمع بين الأخبار عن الصحراء وقراها وواحاتها وعاداتها وجربة وقابس وشنقيط ونحوها، ثم إنه ليس من الواضح أنه قد زار الأماكن التي وصفها، ولعله سمع عنها فقط باعتباره من سكان الأغواط إحدى مدن الصحراء التي تحدث عنها. حقاً إنه قد حج، وهذا يؤهله للحديث عن الجزيرة العربية ولاسيما الحجاز وبعض أخبار تونس التي قد يكون مر بها، ولكن يكاد يكون من المؤكد أنه لم يزر الدرعية السعودية عندئذ، كما أنه من غير المؤكد أنه زار أيضاً شنقيط وغدامس وغيرهما من المناطق النائية التي تحدث عنها.

فإذا أخذنا في الاعتبار هذه الملاحظات وجدنا أن رحلة ابن الدين الأغواطي على غاية من الأهمية. فهي مكتوبة سنة 1242، وأنه قد كتبها بطلب من قنصل أمريكا عندئذ بالجزائر، السيد وليام هودسون[2]، في كراسة تحتوي

---

1 – تتوطن عائلة ابن الدين في الأغواط والونشريس، لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر** ، جزء 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ص-ص. 268-243

2– الملاحظ أن الأوروبيين كانوا يتقربون إلى الجزائريين ويطلبون منهم كتابة رحلاتهم ومذكراتهم، وهو الذي حدث مع علي أفندي ابن حمدان خوجة حين طلب منه المستشرق دي سولسي كي يدون رحلته التي كانت برفقة والده من الجزائر إلى قسنطينة والعودة. وقد ترجمها

على أربع عشرة صفحة، ونحن نتصور أن ابن الدين قد كتب أكثر من ذلك لنفسه ولكنه لخص للقنصل ما رآه كافياً، وقد ترجم القنصل هذه الصفحات إلى الإنجليزية ونشرها. كما ترجمها السيد أفيزاك[1] إلى الفرنسية عن النص الإنجليزي ونشرها أيضاً مع تعاليق وتصحيحات هامة، وأهم المناطق التي ذكرها ابن الدين في رحلته: الأغواط، وتاقدامت، وعين ماضي، وجبل عمور، ومتليلي، ووادي ميزاب، والقليعة (المنيعة) وورقلة، وتقرت، وتوات، وتميمون، وعين صالح، وشنقيط وغدامس، والدرعية، وقابس، وجزيرة جربة.

وقد استفاد الأوروبيون والأمريكيون، أثناء اهتمامهم بالصحراء ومحاولة اكتشافها من هذه المعلومات التي كتبها الحاج ابن الدين عن قراها وعادات أهلها ومسالكها.

– رحلات علمية قام بها جيولوجيون فرنسيون منها التي قام بها المهندس جوس (Jus) الذي تمكن من حفر بئر ماء في أول ماي 1856 بأمر من علي بن فرحات قائد توقورت على عمق 60 م وكان الماء غزيرا وكانت فرحة السكان كبيرة حيث نبع الماء بقوة 4000 ل / دقيقة إلى درجة أنه قيل شعر ملحون بهذه المناسبة. وترجم على هذا الشكل:

Je vous annonce des choses merveilleuses
L'eau a jailli du sein des sables
Dieu a donné l'eau au Sahara
Par l'intermédiaire de celui qui gouverne actuellement

هذا الأخير إلى اللغة الفرنسية. وحاولنا من جهتنا ترجمتها إلى العربية. لمزيد من المعلومات يراجع: **وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عام 1832**. ترجمة. نشر جامعة غاريان، ليبيا 2003

1– كان أفيزاك من الذين اهتموا بمنطقة الصحراء. وهو الذي أنجز دراسة جغرافية عام 1836 عن الجنوب الجزائري.

وقال الفرنسيون إنه باكتشاف الماء تكون البداية القوية لإقامة إدارة فرنسية بالصحراء بدايتها ورقلة ذات الصلة ببسكرة وستكون ورقلة سوقا تجارية هامة للأوروبيين والعرب والميزابيين والسود اليهود[1].

– رحلة إسماعيل بن أحمد بوضربة (توفي عام 1875)[2] بتكليف من الحاكم العام روندون عام 1858–1859 لاكتشاف المنطقة الممتدة من ورقلة إلى غات. وقد دونت رحلته واستفاد منها كثير من المغامرين الذين جاءوا بعده.

– رحلة الحاج البشير (ولد عام 1814) أملاها على ضابط فرنسي عام 1867 وقد استفاد الفرنسيون بما تضمنته من معلومات عن الصحراء وعن سكانها، وعن أولاد سيدي الشيخ

3 – نتائج الرحلة إلى الجنوب

مما سبق ذكره يمن القول إن الرحلات:

– متعددة الجوانب؛ داخلية وخارجية، واقعية وخيالية، علمية وتجارية.

– كان دافع الرحلة من قبل المسلمين هو المفاضلة بين العلم عن المال، على خلاف دافع الرحلة من قبل الأوروبيين.

1– لمزيد من المعلومات يراجع ما كتبناه في: **محاضرات في تاريخ الجزائر**، ط.2، دار الدى 2004 بداية من صفحة 177

2– هو ابن أحمد بوضربة الذي عينته السلطة الفرنسية أول رئيس لبلدية الجزائر العاصمة. وهو من عائلة تجنس أغلب أفرادها بالجنسية الفرنسية، ولعبوا دورا هاما في سياسة الإدماج. لمزيد من المعلومات يراجع أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، جزء 6، ص–ص. 228–230. وجزء 7، ص–ص. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998

– أنتجت هذه الرحلات ما يعرف في الدراسات الحديثة بأدب الرحلة.

– يعد أدب الرحلة مخزونا تراثيا هاما. ومصدرا رئيسا في تاريخ الجزائر. فأدب الرحلة هو عجائب الأخبار وغرائب الآثار.

– تمثل الرحلة إلى الجنوب الجزائري جانبا من الصراع بين إفريقيا وأوروبا.

– كان دافع الرحلة وواقعها علميا ودينيا وتجاريا ونفسيا

– كان للأسطورة الإفريقية والسحر فيها دافع قوي ليقوم الرحالة المغامرون الأوروبيون بالاحتكاك به وفهمه

– وظف الأوروبيون الرحلات توظيفا سياسيا، إذ أن التوسع السياسي كان بعد معرفة المناطق المراد التوسع فيها.

– نتج عن الرحلات استخدام طرق مواصلات امتدت إلى جنوب الصحراء، وإبرام اتفاقيات مع أهم الأطراف في غرداية وغدامس.

في دراسة موضوع هجرة العلماء فوائد علمية ومعرفية كثيرة، من بينها معرفة مكانة العلماء الجزائريين في المجتمع العربي الإسلامي. وطبيعة العلاقات بين المجتمع الجزائري والمجتمع العربي الإسلامي.

إذ كان الجزائريون دائمي الهجرة سواء أكانت داخلية؛ من مدينة إلى أخرى، ومن المدينة إلى الريف، والعكس، أم خارجية إلى البلاد العربية الإسلامية، مثل المغرب الأقصى وتونس وبلاد المشرق. وكان الحجاز وبخاصة الأماكن المقدسة الطاهرة موطن استقرار مستمر لهؤلاء الجزائريين؛ من عامة الناس ومن العلماء الأعيان الذين كانوا يحجون بصفة تلقائية؛ فردية وجماعية. وبصفة رسمية في ما يسمى بركب الحج.

ومن الأسئلة الجديرة بالبحث في موضوعات أخرى غير هذا الموضوع هي كيف كانت تتم رحلة الحج؟ وما هي فوائدها ونتائجها على المجتمع الجزائري والمجتمع العربي الإسلامي؟ وما هو دور العلماء الجزائريين فيها؟ كيف كان يتعامل معها الحكام العثمانيون والفرنسيون؟ والذي يهمنا في هذا المجال الحديث باختصار عن هجرة العلماء من وإلى الجزائر.

دوافع هجرة العلماء

إن هجرة العالم لا تعني هجرة فرد أو أسرة إنما تعني هجرة مكتبة تضم نفائس المعرفة إلى موطن الهجرة. وكانت ظروف اجتماعية وسياسية وعلمية ودينية دفعت كثيرا من علماء الجزائر إلى الهجرة، وكانت في مقدمة الظروف

الاجتماعية عدم وجود مدن علمية زاهرة، فمدينة الجزائر العاصمة كانت معدومة النشاط العلمي وقد وصفها الرحالة العبدري بقوله: "وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف الكربة، وأديب يؤنس الغربة فكأنني أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض النوق"[1].

وفي مقدمة الظروف السياسية علاقة العلماء برجال الحكم التي لم تكن حسنة في أغلب الفترات. لأن المغرب الأوسط عرف صراعات سياسية متتالية انعكست آثارها على العلماء وعلى كتبهم ومكتبتهم، من ذلك يذكر ما تم من حرق مكتبة المعصومة في تيهرت. ومن حرق كتب أبي حامد الغزالي من قبل المرابطين. ورد الفعل كان من الموحدين كذلك[2]. واستمرت العلاقة سيئة بين العلماء والحكام في كثير من الأحيان. لهذا وجد العلماء في الهجرة المنأى والمنى.

وبرغم عدم الاستقرار السياسي في الجزائر بقي العلماء فئة متميزة أمام جهل الحكام المسلمين فسدوا الفراغ بأدوارهم كمستشارين ومشرعين ومفسرين. وصاروا هم "حماة الدين" و"مصابيح الظلام".

وفيما يتعلق بالجزائر يقول أبو القاسم سعد الله فإننا نعرف أن دولة بني زيان مثلا قد اتخذت من العلماء مستشارين ومن المثقفين كتابا ومادحين ولكنها

1- نقلا عن رمضان يخلف، **عبد الرحمن الثعالبي ومنهجه في التفسير**، وماجستير جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 1992، ص.13.

2- لمزيد من التفصيل حول حرق الكتب ينظر: إسماعيل سامعي، "حرق المكتبات والكتب في بلاد الغرب الإسلامي تغييب للآخر أم جناية التاريخ؟"، مجلة **دراسات أدبية وإنسانية**، يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 2، نوفمبر 2004، ص-ص.13-37

لم تفتح وظيفة باسم "شيخ الإسلام"، ونفس الشيء يقال عن قسنطينة تحت الحفصيين ومدينة الجزائر قبل أن يجعلها العثمانيون عاصمة للقطر كله.

ولعل كون الحكام العثمانيين في الجزائر غرباء عن الثقافة العربية وعن تاريخ الحضارة الإسلامية والتشريع الإسلامي هو الذي جعلهم، كولاة وسلاطين، يستأثرون بشؤون الحكم من سياسة واقتصاد وجيش وإدارة، تاركين القضايا الأخرى التي لها مساس مباشر بالدين في أيدي فئة أخرى هي فئة العلماء، وهكذا بدءوا في تطبيق القوانين الوضعية والشريعة الإسلامية، وهو ما يسميه الأوروبيون الفصل بين الدين والدولة. وقد أضاف سلاطين آل عثمان، وعلى رأسهم سليمان القانوني، مجموعة من القوانين المستمدة من العرف ومن حضارات أخرى ومن حالات الضرورة، وأصبحوا هم كحكام مشرفين على تنفيذها[1].

ولهذا لا غرابة في عدم تلقي علماء الجزائر العناية الكافية من رجال السلطة العثمانية، لأن الحياة الثقافية العلمية لم تحظ هي الأخرى بعنايتهم. الأمر الذي جعل أهل العلم يهجرون الجزائر، ومن بقي منهم لم يجد من يقدر علمه. وهذا ما أدى إلى انكماش بعض زوايا العلم واتساع دائرة الخرافة.

وبالمقابل شجع الحكام علماء أسطانبول على القدوم إلى الجزائر، لهذا قدم إلى الجزائر العلماء الفقهاء بجانب والدراويش. وهناك أمثلة عديدة على ورود هذا النوع من المثقفين التي كانت مهمتهم بالدرجة الأولى التدريس ونشر العلم، ويذكر لنا أبو القاسم سعد الله قائمة من هؤلاء أمثال:

1- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص. 388

-محمد بن علي الخروبي المعروف بالطرابلسي الذي قدم من السلطنة العثمانية إلى الجزائر ثم قام منها بمهمات دبلوماسية في المغرب الأقصى قبل أن يستقر في الجزائر، كما تعاطى التدريس والتأليف.

-ومنهم الشيخ فتح الله الذي استقر في قسنطينة بعد أن انتقل بين سورية واسطنبول ومدينة الجزائر، وقد أصبح في قسنطينة شيخ العلم والتصوف، ووصل به الأمر إلى أن أصبح خطيبا ومفتيا.

-المولى علي القادم من اسطانبول ووصفه بأوصاف العلم والتجلة، وقال عنه أنه نزل عند الشيخ الفكون في قسنطينة ومعه مكتبة عظيمة، ثم توجه إلى مدينة الجزائر فعظمه قادتها واستقبلوه استقبالا فخما، ثم دارت عليه الدوائر في ظروف غامضة حتى خرج إلى تونس ناجيا بنفسه.

ولم يأت العلماء من اسطانبول فرادى، بل وفدت أسر علمية على المذهب الحنفي ومن أبرزها عائلة ابن العنابي، والظاهر أن أصل العائلة من اليونان حاليا، والظاهر أيضا أن العائلة استقرت أولا بعنابة حيث اكتسبت لقبها كما انتقلت بعدها إلى مدينة الجزائر حيث تولت وظائف دينية عليا كالقضاء والإفتاء، ومن أبرز الأسماء التي تركتها

محمد بن محمود ابن العنابي صاحب كتاب (السعي المحمود في نظام الجنود) والذي عاصر بداية الاحتلال الفرنسي.

وابن المفتي يذكر في (تقييده) أن والده كان أول من تولى الفتوى من العلماء المقيمين بالجزائر بعد أن كانت في أيدي العلماء الزائرين ومعنى ذلك أن عائلة ابن المفتي (واسمها فيما يبدو شاوش، لأنه يذكر أن اسم والده حسين بن

رجب شاوش) كانت أيضا من العائلات النازحة إلى الجزائر والتي استقرت وتفرعت وأنجبت بعض العلماء منهم المفتي حسين[1].

ومن العلماء الجزائريين الذين هاجروا إلى مكة المكرمة أحمد المقْري[2] (نسبة إلى مقْرة ناحية المسيلة-الجزائر) الذي اشتهر بعلمه في الجزائر، واشتهر بعلمه كذلك في فاس بالمغرب التي جعل منها موطنه الثاني. ثم رحل حاجا إلى البقاع المقدسة حيث كانت له المكانة العلمية الراقية إلى أن توفي بها رحمه الله.

وقد أصاب أبو القاسم سعد الله حين قال: كانت هجرة هذا العالم وأمثاله بمثابة الجامعة المتنقلة التي جمعت من كنوز العلوم؛ المغاربية والمشرقية. والتي أشعت من هذه العلوم بما استفاد منه المجتمع العربي الإسلامي كله. مثلما تكون هذه الهجرة عامل ربط للعلاقات الدينية العلمية والسياسية والاقتصادية بين الشعوب العربية الإسلامية.

وفي تقديرنا أن خمسة عوامل رئيسة كانت سببا في قدوم وتوطن الجزائريين في المغرب، وهي العامل الروحي بوجود شيوخ طرق صوفية مشهورين في المغرب. والعامل الثاني وجود جامعة القرويين. والعامل الثالث وجود حياة هادئة ورخاء. والعامل الرابع وجود نظام سياسي يرحب بالشيوخ العلماء الذي هو الآخر يحظى باحترام علماء الجزائر على أساس أنه نظام شريف النسب. وأخيرا عدم وجود عناية كافية بعلماء أهل البلاد

---

1 – لمزيد من المعلومات عن هجرة العلماء إلى الجزائر يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 1.

2– أحمد المقري هو ابن محمد المقري، هذا الأخير توفي سنة 795 هـــ. وهو أستاذ ابن خلدون.

ولنفس الغرض كانت تونس موطن استقرار بوجود جامعة الزيتونة. ووجود حياة فيها استقرار ورخاء ونظام حكم وشعب يرحبون بالعلماء[1]. ناهيك على أن تونس تعد معبرا هام إلى المشرق وإلى البقاع المقدسة. لهذا كانت أهم المحطات العلمية التي قصدها الجزائريون هي جامعة القرويين وما كان بها من الشيوخ العلماء. وكذلك جامعة الزيتونة المباركة. والأزهر الشريف. والأماكن المقدسة في مكة والمدينة وفلسطين.

وقد وظف بعض الحكام بعض العلماء الجزائريين خدمة لسلطانهم ومنهم السلطان محمد بن الشريف العلوي الذي تقرب إلى سعيد المنداسي الجزائري وكسبه في صفه ونال منه مدحا له، وهجاء ضد العثمانيين في الجزائر[2].

ووجد علماء من الجزائر في عاصمة الدولة العثمانية المقصد لأسباب عديدة منها البحث عن الجاه، ومنها أداء مهمات رسمية، ومنها الهجرة، وأخيرا الإبعاد أو النفي، وهناك نماذج على ذلك مثل قصة يحيى الشاوي النائلي الذي أخذ العلم في الجزائر ثم توجه إلى المشرق وحج، ثم قصد اسطانبول.

---

1 – بحوزتنا وثائق كثيرة هي مراسلات بين حكام وأعيان كل من الجزائر وتونس، يراجع كتابنا: **علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس**، دار البعث، قسنطينة 2002. وكان كثير من الجزائريين الذين استقروا في الحجاز وتولوا مهام التدريس ونذكر منهم محمد بن العربي بن التباني السطيفي، صاحب كتب منها: **إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسنة من فضائل الصحابة**، ط. 1 شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر 1949

2– لمزيد من المعلومات يراجع أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص 428

أسدى العلماء الفقهاء خدمات جليلة عبر مراحل تاريخية لصالح الجزائر، إذ كانوا أداة رشد خاصة في المناطق التي لم يكن للنظام السياسي العثماني نفوذ فيها.

وكان دورهم خارج الجزائر كبيرا، ونذكر من مواقفهم أنهم حلوا مشاكل سياسية بين الحكام والرعية. مثلما توسطوا في حل مشاكل بين نظام الحكم في الجزائر وجيرانها إذ كان الوفد الجزائري من العلماء إلى تونس عام 1037 وكذلك إلى المغرب عام 1064 وإلى أسطانبول عام 1065.

مثلما كان العلماء الفقهاء عامل حفاظ على المبادئ الإسلامية بموقفهم ضد الشعوذة وسيادة الجهل. فكان العلماء حلقة وصل بين شعوب العالم الإسلامي[1].

وكان هؤلاء العلماء يقومون بدور حضاري راق في المشرق وفي المغرب. وكان كثير منهم فضلوا الاستقرار الدائم في المشرق ومنهم ابن صعد الأنصاري الذي توفي في مصر عام 901 هـ. والأمير عبد القادر الذي توفي عام 1883.

وبرغم هذا فقد كانت في الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي هياكل ومؤسسات دينية إسلامية تتألف من شيخ الإسلام والعلماء والقضاة والمفتين والأئمة والمدرسين وشيوخ الزوايا. ففي قسنطينة كان منصب شيخ الإسلام في عائلة الفكون منذ القرن العاشر الهجري[1].

لكن الفرنسيين لم يعطوا مكانة العلماء حقها برغم تعهدهم في وثيقة يوم 5 جويليا 1830 واستبقوا فقط منصب المفتي في المدن الرئيسة بصفة "رجل دين"

---

1 – أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج1، 1988 ص 445.

1 – أبو القاسم سعد الله، **شيخ الإسلام، عبد الكريم الفكون**، بيروت 1986.

يستعان به. وفي حالة معارضته لنظام الاستعمار ينفى وهو ما حصل لكثير من علماء الجزائر، المفتي (شيخ الإسلام) محمد ابن العنابي، والمفتي المالكي علي بن محمد المانجلاتي. فتكون فرنسا بهذه السياسة قد اصطنعت "إسلاما" خاصا بها في الجزائر[1].

---

1 – لمعرفة تفاصيل هذه السياسة يراجع: أبو القاسم سعد الله، تاريخ **الجزائر الثقافي**، ج. 4، دار الغرب الإسلامي، 1998

أثر المذهب المالكي في الثقافة الجزائرية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى من والاه من المصلحين والتابعين.

أما بعد فإن الهدف من عرض هذا الموضوع هو تبيان أثر المذهب المالكي في الثقافة الجزائري؛ أي تاريخية المذهب المالكي في الجزائر وعلاقته بالمجتمع الجزائري، من دون التطرق إلى دراسة المذهب المالكي فقهيا. وقبل عرض الموضوع لي أن أنوه بمساعدة الدكتور سلمان نصر أستاذ التعليم العالي في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في إخراج هذا الموضوع. وقد فضلت أن يكون هذا العرض من خلال النقاط الآتية:

1 –مفهوم الثقافة

2 – موجز تاريخي

3 – من مصادر الثقافة الجزائرية

4– أثر المذهبية في الثقافة الجزائرية

1 –مفهوم الثقافة

للثقافة أكثر من مدلول ومفهوم. ولكن المهم في رأينا أن نفرق بين نوعين من الثقافة؛ الأول في ما يوصف بالثقافة العامة العادية المتمثلة في العادات

---

1 – ورقة أعدت بمناسبة انعقاد الملتقى الوطني الخامس عشر لزاوية ذي النورين المباركة، يومي 30 سبتمبر – 1 أكتوبر 2004 بدائرة إينغر ولاية تمنراست ولم تُلق على الحاضرين. و نشرت في **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، العدد 18 فيفري 2005

والتقاليد اليومية لشعب ما. والنوع الثاني في ما يوصف بالثقافـة العالمـة، أي الثقافة المبدعة والمتجددة. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار ما أضـافه المـذهب المالكي ثقافة عالمة بالنظر إلى مستوى الثقافة العادية السائدة آنذاك.

2 – موجز تاريخي

إن الجزائر من البلدان التي استوطنتها أجناس مختلفة. وعاشت وتعايشت فيها ثقافات متعددة خلال قرون عديدة، وتركت فيهـا بصـمات واضـحة؛ كثقافة الإنسان الأول وما تركه من حضارات (عين حنش، باليكـاو، قبضـة اليد، النصلية، العتيرية). والثقافة العربية التي انتشرت خلال الهجرات الأولى قبل الميلاد، وكانت ذات قيم قبلية. والفينيقية ذات النشاط التجاري والعمـراني. والرومانية ذات المنشآت العمرانية الفلاحية والحربية. والعربية- الإسلامية ذات الإسهام الديني الروحي والعلمي. والتركية العثمانية ذات الإنجازات السياسية – العسكرية البحرية. والأوروبية ذات البناءات المدنية والعلمية والعلمانية.

كلّ هذا ولّد في الجزائر مخزونا ثقافيا متميزا. كانت جوانب منه متكاملة مع الثقافة الجزائرية. وجوانب أخرى متقاطعة معها، وأخرى متنافرة ضـدها. ومن ثم تحكمت في هذا المخزون الثقافي عدة فواعل، تمثلت في أكثر من خطاب عرفته الجزائر؛ ويمكن ذكر منها ما تمثل في خطاب سياسي جمع بـين العـرف والدين (عرف، دين مسيحي، دوناتية...). وفي خطاب ديني مذهبي فقهي سواء أكان سنيا أم شيعيا أم خارجيا. وفي خطاب روحي صوفي. والسـؤال الـذي يمكن طرحه هو ما هو موقع وأثر المذهب المالكي في هـذا المخـزون الثقـافي الجزائري؟ إن محاولة الإجابة على هذا السؤال يفرض علينـا معرفـة وحصـر مصادر الثقافة الجزائرية.

3 – من مصادر الثقافة الجزائرية

مصادر الثقافة الجزائرية كثيرة، ونراها تنحصر في أمرين، الأول تاريخي. والثاني مرجعي تأليفي. فالتاريخي يُعرفُ من خلال الموجات الثقافية التي تعاقبت على الجزائر؛ والتي على أساسها يمكن القول إن المجتمع الجزائري مشدود من الناحية الفكرية والاجتماعية إلى اعتبارات خمسة سبق أن ذكرناها في كتابنا بحوث تاريخية[1]، ونعيد ذكرها باختصار على الوجه الآتي هي:

1 – اعتبار **العرقية** التي تتكون من القبائل والأعراش والأسر الجزائرية العريقة، التي سادت البلاد وباد بعضها وبقي البعض الآخر إلى وقتنا الحالي. وتكونت في جزء منها من الجاليات الأجنبية كاليهودية والمسيحية والزنجية الإفريقية، التي وجدت الخصب والمقام الطيب في الجزائر نتيجة لما تزخر به البلاد من خيرات وأمن، ولما كان عليه الجزائريون من تسامح وتقبل للآخر بالحوار الهادئ. والعطاء المتبادل.

2 – اعتبار **المذهبية** الفقهية خاصة السنية؛ ومنها مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه الذي ولد عام 93هـ بالمدينة المنورة وتوفي عام 179هـ بعد أن أخذ العلم عن أكثر من 100 شيخ، وله تلاميذ كثيرون[2]. نقول بمذهب مالك لأن المذاهب السنية كثيرة تفوق العشرين، إذ زيادة عن المذاهب الأربعة هناك

---

1 – **بحوث تاريخية**، دار البعث، قسنطينة 2001

2 – لمزيد من المعلومات يراجع: أحمد كوري بن الشيخ بن حمدي، **مراسيل الموطأ**، ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، 1991.

مذهب الليث بن سعد، ومذهب إبراهيم النخعي، ومذاهب فقهاء المدينة السبعة.

3 — اعتبار روحي صوفي قام به شيوخ طرق ومصلحون

4 — اعتبار فلسفي عرفته الجزائر منذ عهد سانت أوغستين الذي أسهم بفكر فلسفي —ديني. وعهد ابن رشد في عصر دولة الموحدين. وكذلك القاضي أبي بكر بن العربي ومحيي الدين بن عربي. وتواصل هذا الاعتبار إلى مالك بن نبي في عصرنا الحالي.

5– وأخيرا الأفكار الحديثة المتأثرة بالعلوم الوضعية.

والمصدر الثاني للثقافة الجزائرية يتمثل في المساجد والمدارس والزوايا المنتشرة. وكذلك في وفود العلماء الذين زاروا الجزائر، وفيما تركوه من معارف. وكذلك في ما تركه أبناء الجزائر الذين كانوا يقومون برحلات إلى البلاد الإسلامية ويعودون إليها بكنوز معرفية. فصارت هذه الكنوز مرجعَ كل جزائري في علوم القرآن الكريم. وفي الحديث الشريف مثل كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس الذي بفضله انتشر وترسخ المذهب المالكي. وكتاب الجامع الصحيح للبخاري. وكتاب سنن أبي داوود. وكتاب جامع الترمذي. وكذلك في الفقه. وفي اللغة العربية وبلاغتها. وفي التصوف[1].

1– يراجع: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص–ص. 26–28

4 – أثر المذهبية في الثقافة الجزائرية

كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مبعث الصفاء وانتشار الهناء من وحي التوحيد في التصور والمعتقد. وسار الصحابة رضوان الله عليهم من بعده على هذا النهج السديد فانتشرت الرسالة، وعلا صرح الحضارة فتآلفت القلوب بعد قساوتها، قساوة العرب الأجلاف الذين كانوا وراء الفتنة الكبرى التي مزقت صف المسلمين وضاعفت من أحقادهم لبعضهم ، وتوارث أبناء الأمة الإسلامية مسائها فاشتد بلاء المسلمين لأنفسهم، واتسعت الهوة بين الدين والتدين، بين النص، وفهمه، بين الشريعة (الإرث) والفقه (التراث) فتعددت المذاهب وتناصلت السيوف وتحزبت الفرق، فانكمشت الرقعة الإسلامية بضياع معاقلها الأمامية وتقلصت قلاع العلم ومال الفكر الإسلامي إلى النقل.

وكان المغرب الأوسط مسرحا لأهم الأحداث التاريخية إذ عرف الصراع العصبي والتديني فكانت الطرق الصوفية كثيرة، والمذاهب الدينية عديدة، ومنها المذهب المالكي الذي انتشر في بلاد المغرب بقوة لأسباب كثيرة منها:

1– اعتماد مبدأ التسامح مع الآخر عملا بالآية الكريمة "وقولوا للناس حسنا" [البقرة: 83].

2– عدم مصادرة الآخر عملا بآياته العزيز الحكيم " وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" [يونس:4]

ومهما يكن فقد مرّ المذهب السني في شمال إفريقيا بمرحلتين، الأولى تمثلت في التشبث بمنهج السلف والدعوة للإسلام، وكان ذلك على يد الفاتحين

والفقهاء الوافدين من المشرق[1]، أي بتقبل المجتمع الجزائري للدعوة الإسلامية التي قام بها علماء من المشرق، وعلماء الجزائر حين عادوا من الحجاز. والمرحلة الثانية تمثلت في دور علماء الجزائر السنيين الذين نشطوا في الحركة العلمية في الحجاز وفي غيرها من البلدان العربية؛ إذ صار كثير منهم علماء ومدرسين بتلك البلاد ومؤلفين لكتب تعرف بكتب الرحلات الحجازية وكتب السير التاريخية، وبظهور المتكلمين المغاربة. وبهذا يكون الفقهاء على المذهب السني المالكي قد ساهموا في نشر العروبة لغةً وثقافة، والإسلام دينا وثقافةً أيضا. فاصطبغت الثقافة الجزائرية بالعروبة والإسلام معا بشكل متواز ومتطابق؛ على خلاف ما حدث في المشرق من نفور بعض السكان العرب وغير العرب من المسلمين. وهذا ما يفسر في رأينا غياب بعض النزعات الاتجاهات الفكرية والأيديولوجية في بلاد الجزائر بينما ظهرت في المشرق مثل نزعة العروبة التي اعتمدت الجنس واللغة كأساس. والنزعة القومية الدينية التي اعتمدت الدين الإسلامي. والأيديولوجيا اليسارية التي اعتمدت الصراع الطبقي.

إن أهل المغرب ظلوا متمسكين بالمذهب المالكي ولم يتحولوا عنه إلى غيره من الاتجاهات والمذاهب العقدية التي كانت تحاول أن تزاحمه. إمّا بالدعاية والإقناع بقوة الحجة والبرهان وإمّا بالإكراه بقوة الحاكم والسلطان، بالرغم من

1- أهم الفقهاء الذين جاءوا من المشرق الوفد المتكون من 10 أشخاص برئاسة إسماعيل بن أبي المهاجر الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز حوالي سنة 100 هـ / 778 م إلى شمال إفريقيا. للمزيد من المعلومات يراجع: عبد المجيد بن حمدة، **المدارس الكلامية بإفريقية**، مطبعة دار العرب، ط. 1، تونس 1986،ص. 33 وما بعدها

كثرتها عبر حقب التاريخ. إذ عرف المغرب الخارجية والإباضية والتشيع والمذهب الحنفي.

ولهذا، فحين يكون الحديث عن الفكر الفقهي في الجزائر يكون بالأساس والأكثر عن الفقه المالكي، وبعده عن الفكر الإباضي[1] وعن قليله الفقه الحنفي، هذا الأخير الذي انتعش بوجود العثمانيين[2]. وعن عدم وجود فكر شيعي في الجزائر، رغم أن هذه المذاهب قد ظهرت في الجزائر وانتشرت.

إذن فظاهرة انتشار المذهب المالكي وبقاؤه تثير تساؤلات عدة، فهل هذا راجع إلى طبيعة التركيبة الاجتماعية والثقافية لسكان الجزائر، أم هو راجع إلى طبيعة المذهب المالكي في حد ذاته؟ أم إلى روح التطابق بين مبادئ المذهب ومشكلات الثقافة الجزائرية؟

فمن ناحية أن المغاربة بطبيعة الأهل البربري وبحكم الأعراف الاجتماعية المتواترة [نظام شيوخ القبائل، نظام الإرث، نظام الأرض وغيرها] قريبون إلى جاء به الفقه الإسلامي عمومًا والمالكي خصوصًا. وبالنظر أيضا إلى الأصول العقدية والفكرية للمذهب المالكي والتي تؤكد على ضرورة الاتباع والتحذير

---

1 – نذكر من المؤلفين في الفقه الإباضي عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم الثميني الذي ولد في بني يزقن عام 1130 هجرية. لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص-ص. 74-76

2 – إن التأليف في الفقه الحنفي كان قليلا مقارنة بالتأليف في الفقه المالكي والإباضي. فباستثناء ما كتبه محمد بن محمود العنابي لا نجد ما يذكر سوى نصوص قليلة. لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 2، ص. 79. ولد محمود بن العنابي في الجزائر عام 1189 هجرية وهو من حافظي الحديث متنا وإسنادا. وكان جده حسين بن محمد العنابي تولى منصب الإفتاء ومن المفسرين للقرآن الكريم.

الشديد من الإحداث في الدين والابتداع. ومجابهة المبتدعة والرد عليهم ومناطقهم فكريا وعلميّا واجتماعيا- فلم تتأثر المالكية بالفرق الكلامية التي تعدى نظرها إلى فرق مبتدعة كالجبرية والقدرية والرافضة والخوارج وغيرهم.

ولأن المذهب المالكي أنتج فقها أساسه الفرائض والإرث والوقف والأحوال الشخصية ومبادئ الحساب؛ معتمدا على علم الظاهر بعيدا عن علم الباطن مثلما هو الحال لدى علما التوحيد (أذكار وأوراد ومناقب ومواعظ وشروح).

وقد انتشر المذهب المالكي في المجتمع الجزائري، وصار بعدا مميزا للثقافة الجزائرية بواسطة مختصر سيدي خليل بن إسحاق المصري، إلى درجة كما قال أبو القاسم سعد الله صار هذا المختصر في المرتبة الثالثة لدى الجزائريين بعد القرآن الكريم وصحيح البخاري[1]. وهذا ما يفسر الإنتاج الغزير لعلماء الفقه المالكي مثلما هو الحال لدى أحمد بن يحي الونشريسي الذي توفي عام 914 هـ وكذلك محمد بن محمد بن أحمد المقري الذي توفي 794هـ. وغيرهما.

ولم يكن علماء الفقه المالكي متعصبين ضد علماء المذهب الحنفي، بل اعتبره أئمته مذهبا سنيًا. لهذا نجد بعض الأئمة من كبار العلماء والفقهاء المالكية في الجزائر انتقلوا من المذهب المالكي إلى المذهب الحنفي وتولوا مناصب هامة في ظل الحكم العثماني كالإفتاء والقضاء وغيرها.

1- لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 2، ص-ص. 67-66

ومن أمثلة هؤلاء أبو عبد محمد بن المسبّح القسنطيني (ت 1242 هـ) قاضي السادة الحنفية بقسنطينة، كان مالكي المذهب، فاستماله عثمان باي إلى المذهب الحنفي.

وكان الأقوى في بلاد المغرب من المذهب السني الأشعري (نسبة إلى أبي الحسن الأشعري ت 330 هـ/ 945 م) وهو مذهب وسطي بين غلو المعتزلة في اعتماد العقل وبين المكتفين بالنص من علماء أصول الدين وعلم التوحيد أو الفقه الأكبر في الالتزام بالنقل[1]. إذ انتشر المذهب الأشعري في البلاد الإسلامية مغربا ومشرقا. وبه صارت الثقافة الجزائرية في جانبها الغالب ثقافة فقهية سنية.

واهتم علماء الفكر السني برواية الحديث والتدوين واستنباط الأحكام لهذا كانت الثقافة الجزائرية الأقرب إلى الحوار وإلى التسامح خلاف ما تقوم به فرق أخرى في بعض بلدان الشرق والمشرق.

وسبق أن عرف المغرب الأوسط تحولات سياسية كثيرة، إذ جاء المرابطون وشجعوا انتشار المذهب المالكي إلى درجة التطرف. ولكن مجيء الموحدين بقيادة المهدي بن تومرت ضعف نشاط المذهب المالكي. وبعد الموحدين ظهر المرينبون في المغرب الأقصى وظهر بنو عبد الواد في تلمسان وبنو حفص في تونس وشرق الجزائر وبين هذه الأنظمة كان الصراع وكان التطرف.

فالمرابطون تطرفوا وحاربوا المتأولين إلى درجة أنهم حرقوا كتب الإمام أبي حامد الغزالي. وكان رد الفعل ضدهم قويا من قبل الموحدين. وبسقوط دولة

1- وإن كان يشهد للحارث بن أسد المحاسبي المتوفى عام 243 هـ /936م بأنه أول من أصّل المذهب الكلامي المستند على القرآن الكريم والحديث الشريف.

الموحدين عرف المغرب الأوسط تحرشا إسبانبا وأقبل النـــاس علـــى المجاهـــدة ولكشف فكثوت الزوايا وانتشرت.

لأن المميز في الموحدين أنهم سمحوا بالتأويل[1] فظنه المجتهدون في أصـــول الدين والتوحيد الأمر الذي أثار حفيظة الفقهاء على المذهب المـــالكي الـــذين ناصبوا المتأولين العقليين العداء . وبانتهاء دولة الموحدين وظهور الزيانية تقلص نفوذ المتأولين ونشط المحافظون التقلديون على مذهب مالك وعملوا على إحياء الكتاب الشريف والسنة المحمدية. وقد لقوا من تأييد العامة لهم ما سمـــح لهـــم ببعث الثقافة الجزائرية إلى أن تستمر إلى اليوم متميزة بنهجها المـــالكي، ولعـــل السبب في رأينا يعود إلى التقارب الحاصل بين الفقهاء والمتصـــوفة في الجزائـــر. وإلى بساطة المذهب المالكي التي دفعت الناس إلى الأخذ به. وإلى مكانة فقهاء المالكية العميقة في نفوس العامة، وفي نفوس الحكام إذ آزر الحفصـــيون فقهـــاء المذهب المالكي[2] وشجعوا العلوم الدينية. وكان من فقهاء الســـلفية المالكيـــة الكبار ابن مرزوق الحفيد (ت 842هـ)[3]

اهتم المرينبون كذلك بالعلم والعلماء وقدروا حق قدرهم، إذ أن السلطان أبا يوسف يعقوب المريني كافأ كل عام بمثقال ما يزن الكتاب الذي ألفه هذا أو

1-كان بن تومرت يهتدي بفكر أبي حامد الغزالي، حيث جعل من كتابه إحيـــاء علـــوم الـــدين دستورا لأتباعه.

2- من المعروف أن الحفصيين في الشرق الجزائري والمرنين في الغرب والزيانيين في تلمسان ظهروا على حساب الموحدين في القرن 9

3- لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقـــافي**، ج1، دار الغـــرب الإسلامي، بيروت 1998، ص- ص. 51-52

ذاك العالم، واشترط في معاهدة الصلح عام 768هـ أن يعيد إليه جميع المخطوطات التي كانت في قرطبة واشبيلية، وفعلا وصلت إلى خزائن المغرب حمولات كثيرة[1] ومنها كتاب الموطأ[2] لمالك بن أنس جامع لأصلح الأحاديث الشريفة من مرويات أهل المدينة الفقهاء.

وبرغم هذه التحولات السياسية وما نتج عنها من سلبيات على المذهب المالكي إلاّ أن السنيين فرضوا أنفسهم في الجزائر على الشيعة وعلى الخوارج وعلى المعتزلة، وعلى الطرقيين وحتى على الفلاسفة[3] وبذلك حافظوا على مقومات الثقافة الجزائرية، وعلى الجزائريين من سفك الدماء التي سالت كثيرا في بلاد المشرق، ولم يسلم منها كبار الأئمة.

مثلما تصدى فقهاء المالكية لنفوذ اليهود الاقتصادي والسياسي. مثلما نقموا على بعض السياسيين المسلمين. وكذلك على الجامدين من المسلمين. ودعوا إلى محاربة كل من يمس الإسلام من النصارى وقد استشهد كثيرا من العلماء الفقهاء من أجل هذا[4].

فعلماء المالكية رسخوا ثقافة التعايش السلمي بين الفاتحين والسكان الأصليين، وبينوا أهم وجوه التطابق بين الوافدين المسلمين المستقرين خاصة حول الأرض التي كان أهل المغرب الأوسط يعتبرونها هوية وعنوان وجود

---

1 – رمضان يخلف، **عبد الرحمن الثعالبي ومنهجه في التفسير**، وماجستير جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 1992، ص.13.

2 – تفهم كلمة الموطأ بمعنى المنقح، والممهد.

3– الملاحظ أن علم المنطق والفلك لم يشهدا حضورا مؤثرا في العهد العثماني.

4– لمزيد من المعلومات يراجع: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 2، ص. 81

وتماسك اجتماعي أكثر مما هي مردود مادي أقرها القرآن الكريم كذلك على المال ملك لله وأن الإنسان له حق النفع بها وعليه من الواجبات أن يجاهد المسلم من أجلها، إلى غير ذلك من الأمور الهامة التي قام بها المذهب المالكي لصالح المسلمين والعامة من الجزائريين. مثلما قام علماء المالكية بالدعوة للجهاد. ومنع الأجنبي من احتلال الجزائر ومصادرة ثقافته. مثلما عارض الحكام الظلمة. ونذكر من الذين قاطعوا الأمراء محمد السنوسي الصوفي المالكي وكذلك تلميذه يوسف السنوسي الذي قام بدور التقاضي بين الناس وأثر وأثرى الثقافة الجزائرية بالحفاظ على مقوماته، وبما أضافه من مخزون فكري تأليفي.

موجز عن نظام الحكم بالجزائر في العهد العثماني

تعاقبت على الجزائر موجات بشرية أجنبية متعددة، منها موجة الفنيقيين ثم الرومان ثم الوندال فالبيزنطيون والعرب المسلمون ثم التحرشات الأسبانية ثم الأتراك العثمانيون. وأخيرا كان الأوروبيون بداية من عام 1830. ونحاول في هذا الموضوع أن نتعرض لشيء من نظام الحكم عهد الأتراك العثمانيين، ولأهم الثورات ضدهم في الجزائر.

1- نظام الحكم العثماني في الجزائر

مر نظام الحكم العثماني في الجزائر بفترات سياسية مختلفة ومتميزة وهي:

- فترة البيلرباي التي امتدت من عام 1518 إلى 1588
- فترة الباشوات التي دامت من عام 1588 إلى 1659
- فترة الأغاوات التي استمرت من عام 1659 إلى 1671
- وأخيرا فترة الدايات التي امتدت من عام 1671 إلى 1830

والملاحظ على هذه التسميات أنها نسبة إلى رتبة الحاكم وليست نسبة إلى تفرد نظام الحكم ومميزاته. مثلما نلاحظ على هذه الصفات أنها أجنبية وغريبة عن المجتمع الجزائري الذي لم يسبق له أن عرفها سواء قبل أو بعد الوجود العثماني.

ونحاول التعرض لحاكمين متميزين في العهد العثماني؛ على أن يكون الأول في فترة البيلرباي ونعني به علج علي. والثاني في فترة الدايات هو محمد

عثمان باشا. والهدف من ذكر هذين الحاكمين هو إبراز أهم سياسة كل منهما، وأثرها على مسيرة تاريخ الجزائر.

فالحاكم علج علي كان واعيا بدور الدولة العثمانية، وعارفا بالأخطار المحدقة بها، لأنه جاء في عهد بدأت ملامح الضعف تدب في هياكلها. خاصة بعد معركة ليبانتو سنة 1571 التي تعتبر بداية التراجع العثماني في البحار.

وقد حاول علج علي أن يشحن ولايات هذه الدول الثلاث وهي الجزائر وتونس وليبيا بطاقة جديدة، خاصة حين أتيحت له الفرصة بإدارة الأسطول العثماني بعد ذلك، وكان في كل حياته العسكرية شاهدا وفاعلا في أهم الأحداث.

وقد تولى علج علي الحكم على بلاد الجزائر بلقب (البايلرباي). وفي عهده صارت مدينة الجزائر عاصمة المغرب العربي (عدا المغرب الأقصى). وكان عهده بداية عهد البناء الإداري والسياسي للجزائر في العصر الحديث؛ أي لدولة الجزائر التي استمرت عدة قرون، ولم يتمكن منها إلا الاستعمار الفرنسي بداية من سنة 1830.

أما الداي محمد عثمان باشا 1766-1791 فقد عرف بالحزم والحنكة، لهذا عرفت الجزائر كيف تطور نفسها، وتتخلص من الاحتلال الإسباني. ومن تمرد القبائل الداخلية. وفي عهده كانت إصلاحات صالح باي في الشرق الجزائري، ومحمد الكبير في الغرب الجزائري.

ومن مميزات النظام العثماني خلال مراحل وجوده أن إدارته كانت مركزية، وإقليمية في نفس الوقت. ويتكون النظام المركزي عهد الدايات من المجلس الإداري الذي يتكون من الداي وخوجة الخيل، هذا الأخير يعتبر بمثابة

وزير الدفاع في وقتنا الحال،ي ومن الخزناجي وهو بمثابة وزير المالية ووكيل الحرج الذي يعتبر وزير البحر و"القرصنة". بينما كان نظام الحكم في الأقاليم يتكون من الباي والديوان والآغا في المدينة. ومن الشيوخ والمخزنية في الريف[1].

في حين كان النظام العثماني في أسطانبول يتكون من السلطان وهو الحاكم المدني والعسكري المطلق. وهو يعتبر منذ القرن 16 الخليفة على كافة المسلمين. ويليه في الأهمية شيخ الإسلام الذي تخضع له جميع السلطات المدنية والعسكرية عبر أنحاء الإمبراطورية. وتحت إشرافه المفتي الذي كان يقيم في كل إقليم أو إيالة، ويليه في الدرجة الثالثة رئيس الحكومة الذي هو الوزير الأول أو الصدر الأعظم.

هذا في أسطانبول، أما في باقي الولايات فقد كان النفوذ العثماني ملموسا في كل من ولاية حلب، ودمشق، وصيدا وطرابلس والعراق والجزيرة العربية الحجاز واليمن و مصر، وطرابلس، وتونس والجزائر. باستثناء لبنان التي حافظت على استقلالها الذاتي تحت إشراف الأمراء العرب.

ولكن معظم هذه الولايات العربية حاولت الاستقلال عن الباب العالي؛ ففي العراق قامت أسرة باشوية بقيادة حسن واستمر حكمها حتى عام 1831 وفي طرابلس الغرب حاولت الأسرة القرامنلية الاستقلال عن الباب العالي إلى

---

1 – تمكن النظام العثماني من كسب صفوف قبلية في الريف عرفت بقبائل المخزن، أي أنه حكم بها البلاد بأبناء البلاد. وكانت هذه القبائل منتشرة في كامل أنحاء الجزائر. لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **دراسات في تاريخ الجزائر الحديث**، ط.2، دار الهدى 2004. وكذلك موضوع "الإدارة والمقاومة في منطقة قسنطينة أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي" في هذا الكتاب

غاية 1835. وفي تونس كانت الأسرة الحسينية. وفي مصر كان محمد علي. بينما لم يعلن النظام العثماني في الجزائر الانفصال عن القسطنتينية برغم ما كان يتمتع به من شبه استقلالية في تسيير أموره الداخلية، وفي علاقاته الخارجية. وبالرغم من الثورات المحلية التي قامت ضده.

2 – ثورات الجزائريين ضد العثمانيين:

كانت أطراف جزائرية كثيرة معارضة للنظام العثماني منذ بداية وجوده في الجزائر، سواء في المدينة أو الريف، ومن هذه الأطراف كان بعض العلماء الذين نقموا على بعض الحكام. وكانت أيضا بعض الأسر والقبائل. وكذلك بعض رجال الطرق الصوفية، ولهذا لا يستغرب في وجود ثورات مسلحة ضد رجال الحكم العثماني في غرب ووسط وشرق البلاد. ويمكن ذكر أهمها في المختصر الآتي:

- ثورة سليم التومي الذي قتله عروج بربروس[1]
- ثورة الزيانيين في تلمسان وقتلهم عروج بربروس
- ثورة ابن القاضي أمير إمارة كوكو
- ثورة قبيلة السويد (بمدينة تنس)
- ثورة زواوة ضد القائد العثماني المشهور بالذباح عام 1158 في البويرة
- ثورة الكراغلة في الجزائر العاصمة 1634

1– وصف النبيري في مخطوط العود الجزائري خير الدين وعروج بأشنع الأوصاف، خاصة في المجلس الثاني والثالث. لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **بحوث تاريخية**، دار البعث، قسنطينة 2001، ص–ص. 25-55

– ثورة تلمسان 1035 و 1037

– ثورة أحمد الصخري عام 1047 الذي له نفوذ كبير امتد من في منطقة الزاب إلى تونس خاصة ضد باي قسنطينة بقيادة قبيلة الذواودة والحنانشة. وفي هذه الثورة اشتهرت البطلة علجية بنت بوعزيز بوعكاز بموقفها حين قادت جموع القوم إلى النصر بعد فشلهم وتخاذلهم.

– ثورة يحي الأوراسي في الأوراس، وهو عالم شريعة وحقيقة

– ثورة درقاوة 1810 بقيادة الشيخ محمد العربي الدرقاوي (ت 1223)

– ثورة درقاوة في الشرق بقيادة ابن الأحرش. ومن غير المستعبد أن يكون للمغرب الأقصى دور كبير في هذه الثورة.

– ثورة الزبوشي الرحماني (ت 1810) في رجاس (ميلة) الذي قتل عثمان باي عام 1804[1].

وكان لثورة درقاوة بموازرة الطريقة الرحمانية أثر سيء على النظام العثماني كل هذه الثورات والمواقف أثرت على الرأي العام عام 1830 ولم يكونوا صفا واحدا بجانب العثمانيين في مواجهتهم للفرنسيين حين غزوا الجزائر العاصمة.

وفي الأقاليم لم يقدم محي الدين والد الأمير عبد القادر المساعدة لباي وهران حين استنجد به. وكذلك مثله شيخ الطريقة التيجانية الذي لم يمد المساعدة للعثمانيين.

---

1 – لمزيد من المعلومات عن الزبوشي يراجع:
* Féraud (L.), « Zebouchi et Osman-Bey », in **RA**, année 1862,p-p. 120-127

ولم يقتصر التذمر ضد العثمانيين من أهل الريف بل امتد إلى المدن إذ أن كثيرا من أعيان وحضر العاصمة أمثال أحمد بوضربة الـذين تعـاملوا مـع الفرنسيين.

وقد نتجت عن هذا التذمر من أطراف كثيرة قطيعة سوسيولوجية بـين النظام العثماني وبعض التشكيلات الاجتماعية الجزائرية.

واقع السلطة في تاريخ العالم العربي الحديث[1]

حظي موضوع السلطة في الدراسات السياسية والفلسفية والاجتماعية في العالم بحيز كبير من البحث. وتأتي محاولتنا هذه محددة في النقاط الآتية:

1– واقع العالم العربي السياسي منذ القرن 16

2– مفهوم السلطة

3– السلطة بين التنظير والممارسة

1 – واقع العالم العربي السياسي منذ القرن 16

كانت أغلب أقطار العالم العربي بدايةً من القرن 16 تخضع بطريقة أو بأخرى إلى الدولة العثمانية. التي تظاهر سلاطينها بالتزام تطبيق الشريعة الإسلامية، بدءا بأعلى منصب فيها وهو الخليفة، فأظهروا للمسلمين أن حكمهم هو امتداد لحكم الخلفاء الراشدين؛ الأمر الذي مكنهم من السيطرة على أجزاء غير قليلة من العالم العربي، فكانت سوريا منذ عام 1516. ومصر منذ عام 1517 والجزائر منذ عام 1518. واليمن منذ عام 1532. والعراق وتونس منذ عام 1534. وطرابلس الغرب منذ عام 1551. باستثناء المغرب الأقصى ووسط الجزيرة العربية التي لم تتمكن السلطنة العثمانية من إخضاعهما. وبذلك صار العثمانيون أصحاب السلطة "الشرعية" بل أصحاب السيادة على هذه الأقطار.

---

1 – أعدت هذه الورقة بمناسبة الملتقى الدولي حول الإسلام والعولمة، نزل الأوراسي–الجزائر العاصمة في فيفري 2004

وبذلك تكون عوامل كثيرة تجمعت ومكنت السلطنة العثمانية من بسط نفوذها السياسي على هذه الرقعة الواسعة. ونذكر عاملين فقط مناسبين لهذا المقام، وهما وجود تحرش أوروبي مسيحي ضد البلاد الإسلامية. وترحيب من المسلمين "بالخلافة العثمانية".

وبمثل ما تواجد من عوامل في تأسيس إمبراطورية عثمانية، بمثل ما تجمعت عوامل أخرى أدت إلى سقوطها. وكانت هذه العوامل داخلية وخارجية.

*** – العوامل الداخلية:**

- ضعف الحكام في السلطنة وفي الأقاليم.
- ظهور حركات انفصالية في البلاد العربية.
- ظهور القومية العربية المناهضة للتتريك.
- وجود قطيعة سوسيولوجية بين الحكام الأتراك العثمانيين وأهم شرائح المجتمعات العربية الإسلامية.
- غلق باب الاجتهاد، وانحراف مؤسسة القضاء الإسلامي عن مهامها بإسناد المناصب إلى محافظين جاهلين لأمور الدين والدنيا.

*** – العوامل الخارجية:**

- الغزوُ الخارجي، إذ تمكنت كل من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا من احتلال أغلب البلاد العربية.
- فعلُ الصهيونية "اليهودية" في الإطاحة بسلطنة الدولة العثمانية.
- كثرة الحروب في الأناضول.

بعد هذا العرض الموجز يمكن طرح السؤال الآتي: ما هو واقع السلطة في البلاد العربية؟ وللإجابة على مثل هذا السؤال نبدأ بعرض مفهوم السلطة.

2 – مفهوم السلطة

نهدف من عرض هذا الموضوع إلى ملامسة وتحديد نوع السلطة السائدة في البلاد العربية. إذ سبق وأن عرضنا مفهوم السلطة في كتابنا **من الملتقيات التاريخية**[1]، حيث بينا "أن السلطة مفهوم أخلاقي يشير إلى النفوذ المعترف به كليا أو جزئيا لفرد أو لنسق أو لتنظيم مستمد من خصائص وخدمات معينة. وقد تكون السلطة سياسية أو أخلاقية أو علمية"[2]. وعلى هذا الأساس تكون السلطة فنَّ الحكم. وتعتمد على القوة، وتأخذ وسائل متعددة كالدين والجيش والحاكم، لهذا اعتبرها كثير من المفكرين العامل المحرك لتطور الإنسان.

3 – السلطة بين التنظير الممارسة

كان موضوع السلطة الشرعية مركزيا في التاريخ الإسلامي. إذ من أجل تولي هذه السلطة اختلف المسلمون، اختلفوا حول من يتولى شرعا أمر

1- طباعة دار البعث-قسنطينة 2001، ص-ص. 94-126

2-روز، تتال (م)، بودين (ب)، **الموسوعة الفلسفية**، ترجمة سمير كرم، ط. 5، دار الطليعة بيروت 1985، ص- ص. 248-249.

المسلمين، مما أدى إلى كثرة الإفتاء من قبل الفقهاء، وغلق باب الاجتهاد من طرف الحكام، فظلت المبايعة تُطلَبُ وتفتك[1].

وظلت السلطة تاريخيا مطلبَ أكثر من طرف، كان والطرف الأول دينيا إلهيا. ومنه الطرف الثاني الذي هو فقهي شرعي (مذهبي). والطرف الثالث الذي كان ولازال روحيا عرفانيا. والطرف الرابع كان شيخيا عرقيا. والطرف الخامس مدني سياسي. وأخيرا جاء مطلب العولمة التي هي مشروع سلطة مطلقة مهيمنة عالميا.

والمطلب الديني الإلهي كسلطة هو ما يكسب الحاكمَ صفات دينية، بحيث لا يعمل بإرادته كفرد وإنما يعمل بأمر الله، فيصبح ذا قداسة، وليس على أي أحد أن يعارضه، أو يجادله؛ لأن ذلك يعني معارضة ومجادلة الله. لأن الحكم الديني معصوم. ويبقى هذا مطلبا سلفيا.

أما مطلب الحكم الفقهي الشرعي فهو حكم الخليفة/الفقهاء، حكم الاجتهاد القائم على الإفتاء، وعلى سنن الشرفاء. أي بالاجتهاد.

بينما الحكم الروحي العرفاني هو القائم على بركة القطب والأولياء. أي على الولاء. وهو ينتشر في البلاد العربية الإسلامية بشكل واسع. وكذلك نفس الشيء بالنسبة لنفوذ العشائرية القبلية المتواجد في البلاد العربية.

---

1 – جاء في **لسان العرب** لابن منظور أن المبايعة هي صفة على إيجاد البيْع وعلى المبايعة والطاعة، فيقال تبايعوا على الأمر، أي تعاهدوا. وجاء في قول نبينا الكريم: ألا تُبايِعونّي على الإسلام؟ هو عبارة عن المعاقدة والمعاهدة، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعتَه ودخيلةَ أمره. ينظر المجلد الثامن، دار الكتب العلمية، ط. 1، بيروت 2002، ص–ص. 31–30

بجانب هذا كله يسود المطلب المدني السياسي القائم على أساس **وضعي** عقلاني بشقيه الجدلي (المادي والمثالي) والليبرالي وهو الذي كرس السلطة **بالقوة.** أي بالإخضاع.

فعلى هذا الأساس كان خطاب السلطة في البلاد العربية دينيا في الأساس خلال عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بحكم أن الرسول كان معصوما. وبوركت مبايعته بقوله سبحانه وتعالى:"إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فوق أيْدِيهم فمن نكثَ فإنما ينكُثُ على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيُؤتيه أجرا عظيما[1]".

وكان خطاب السلطة في عهد الخلفاء الراشدين فقهيا. مثلما كان خطاب السلطة فقهيا أيضا في عهد الأمير عبد القادر الجزائري لتوفر شرط أساسي هو البيعة. أما ما حدث من مبايعة بين عهد كل من الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من جهة، وبين بيعة الأمير عبد القادر يعد بيعة سياسية أكثر مما هي شيء آخر. ولهذا فخطاب السلطة يدخل في إطار التاريخ الإسلامي بالأساس، لا ضمن الإطار الشرعي الإسلامي.

وعلى هذا الأساس فغياب ومصادرة السلطة في أبعادها الدينية والفقهية والروحية العرفانية في البلاد العربية الإسلامية سهل الأمر لظهور خطاب سياسي مدني وضعي دخيل. وكان هذا سببا في انشطار المسلمين إلى أكثر من صف (قومي عربي، وقومي إسلامي، ويساري اشتراكي، وبعثي قومي، وعشائري قبلي).

1- سورة الفتح آية 10.

إذ أنه بعد الفتنة الكبرى بمقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه لم يتبايع المسلمون على أمر واحد، ثم خضعت سلطة الحكم "المبايعة" إلى تجاذب الأطماع الشخصية، والمصالح الاستراتيجية، والتيارات السياسية، والفرق المذهبية. واختلف المسلمون سُنةً وشيعة وخوارج حول لمن تجوز المبايعة شرعا؟ ونتيجة لهذا المسار تشكل التاريخ الإسلامي، وتحدد مصير المسلمين، في كثرة الحروب الطاحنة التي ورثت الحقد في الأجيال اللاحقة، وألهتهم عن مسايرة ركب التطور الذي يكون بالبناء والابتكارات الحضارية؛ لا بالصراعات الدموية. فحدثت القطيعة واستمرت بين العلماء الفقهاء والحكام[1]. وصار التاريخ الإسلامي في غالبه تاريخ الحكام وتاريخ السياسة؛ ولم يكن إلاّ في قليله تاريخ الأمة وتاريخ العلوم والابتكارات وتاريخ الفقه والتشريع والاقتصاد، لهذا كان خطاب السلطة حكمَ الأقلية الأيديولوجية. مثلما كان الحكمُ استعمالَ القوة الحربية وجمعَ الثروة المادية. فأدى هذا إلى كثرة الإفتاء حينا. وإلى غلق باب الاجتهاد أحيانا، وإلى انكسار نظام القضاء دائما.

وصار خطاب السلطة في البلاد العربية الإسلامية زئبقيا فسيفسائيا، أي، أنه صار خطابا ليس واحدا وموحدا، الأمر الذي أدى إلى أن تعيش أنظمة الحكم القائمة في قطيعة سوسيولوجية مع أغلب الشرائح الاجتماعية المحلية. مثلما أدى بها إلى أن ترتمي في أحضان الأنظمة الوضعية الرافضة لتناقضات هذه المجتمعات العربية. وصار العالم العربي أرضا خصبة لمشاريع استعمارية. ونتيجة لهذا المسار تفرد خطاب السلطة في البلاد العربية بأفاهيم لم يتميز بها أي مجتمع

1- لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي**، دار الهدى، 2004 ص-ص. 25-31

آخر، ومن هذه الأفاهيم: القومية العربية-القومية الإسلامية. المعاصرة-الأصالة. التطرف_الاعتدال. الانفتاح_المحافظة.

من خلال العرض يتبين أن غياب السلطة الشرعية في البلاد العربية الإسلامية أدى إلى ظهور خطاب سياسي مدني وضعي دخيل. وصارت السلطة فيها من حيث الممارسة أكثر من واحدة، ولا تشبه أي نوع من السلطة في التاريخ؛ إذ ليست بمثل ما كانت عند اليونانيين الذين كانوا هم مصدر السلطة وهم المنفذون لها. وليست بمثل ما كانت لدى ملوك مصر عهد الفراعنة الذين كانوا هم مصدر السلطة وهم المنفذ لها. ولا بمثل ما كان في العهد الروماني حيث كان الأمبراطور ومجلس الشيوخ هم مصدر السلطة. ولا بمثل السلطة في أوروبا التي كانت بيد النبلاء الذين كانوا يملكون ويحكمون البلاد. ولا بمثل السلطة التي كانت في عهد الفردوس المفقود حيث كان مصدر السلطة القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه.

وكان هذا سببا في انشطار المسلمين إلى أكثر من صف. وسيساهم هذا الواقع إلى حد كبير في نجاح مشروع العولمة الذي ستكون له انعكاسات على العرب والمسلمين ثقافيا واقتصاديا وسياسيا وتربويا تعليميا وإعلاميا. أي أن العولمة ستكون مثل الطبيب الحرفي الماكث في عيادته ويأتيه المريض بإرادته ليعطيه المال مقابل حصوله على مسكنات قاتلة. أي أن العولمة ليست الثقافة التعليمية. وليست فلسفة، وليست ظاهرة اجتماعية، إنما هي حركة تاريخية سياسية اقتصادية اجتماعية وُضعت لمواجهة القوميات والديانات

وصفوة القول إن العالم العربي الإسلامي عاش ويعيش تناقضات بين هياكله ومؤسساته أدت إلى ظهور عديد من السلطات تناحرت فيما بينها.

الأمر الذي سهل عملية الغزو الأجنبي الواسع الذي جاء بوجوه مختلفة وخلال مراحل عديدة وآخرها ما يسمى الآن بالعولمة التي ستكون لها انعكاسات ثقافية واقتصادية وسياسية وتربوية تعليمية وإعلامية على العرب والمسلمين.

إسهامات في الإصلاح والسياسة[1]

قال ابن القيم الجوزية (1293–1350م) السياسة نوعان، سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها. وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة علمها ممن علمها وجهلها ممن جهلها.

المقدمة

يحتل الفكر السياسي والإصلاحي حيزا كبيرا في الدراسات الحديثة. ونحاول من خلال قراءاتنا أن نقدم شيئا عن هذا الفكر. وعن بعض الإسهامات؛ وهذا من خلال النقاط الآتية:

1–مفهوم الإصلاح السياسي

2–مفهوم السياسة

3–النخبة

4–النخبة والديمقراطية .

5–إسهام جزائري في الإصلاح السياسي

1– نشر هذا الموضوع في مجلة **دراسات أدبية وإنسانية**، الصادرة عن مخبر الدراسات الأدبية والتاريخية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد 2 عام 2004

1- مفهوم الإصلاح السياسي

نقصد بالإصلاح السياسي والاجتماعي، هنا، تلك المحاولات الفردية والجماعية، النظرية والتطبيقية التي قامت في البلاد العربية الإسلامية، قصد إصلاح أحوال المسلمين بالداخل، والتصدي للخطر الأجنبي الذي هدد مقوماتها من الخارج.

وكانت هذه المحاولات سياسية اجتماعية من دون أن تمس النص الديني الإسلامي. خلاف ما وقع في أوروبا الذي كان الإصلاح فيها ثورة دينية وسياسية واجتماعية ضد الكنيسة أولا، وضد أنظمة الحكم ثانيا وضد العرف ثالثا. وبناء على هذا يكون قصدنا الأساس من تقديم هذا الموضوع هو إبراز مساهمات الجزائريين في هذه الحركة الإصلاحية التي عرفها العالم العربي الإسلامي.

ويعد موضوع الإصلاح من المواضيع التي حظيت بعناية فائقة، إذ أنه لا يمكن فهم الإصلاح إلا في ضوء التخصصات المتكاملة، كعلم الاجتماع والتاريخ والديانات والفلسفة والعلوم السياسية والقانونية. ففي الاستعانة بهذه التخصصات يكون الفهم العميق للحركة الإصلاحية.

ونرى أهم إشكالية تطرح لدراسة هذا الموضوع هي في السؤال الآتي: ما هو المطلوب من الإصلاح؟ وهل يكتفي المصلح بفهم الواقع وبوصفه أم عليه أن يتجاوز هذا الوصف ويقدم بديلا عنه لتغييره؟

وسنحاول الإجابة على مثل هذه الأسئلة بالتحدث عن مساهمات بعض الجزائريين في هذا اللون من الإصلاح. وللإجابة كذلك عن السؤال الآتي هل

كان الهدف من الإصلاح الجزائري هو تأسيس نظام حكم متطور بتأسيس دولة حديثة؟ أم الاكتفاء بإصلاح الأحوال الاجتماعية فقط؟

2- مفهوم السياسة

من خلال القراءة لأهم المراجع التي تناولت السياسة وعلومها بالدراسة يتأكد أن الذين تناولوا هذا الموضوع، لم يكونوا متفقين على تعريف واحد، يمكن ضبط به معنى السياسة. وما قدم من تعاريف-وهي كثيرة- كان يدور حول: إن السياسة "فن الحكم". "وإنها فن حكم المجتمعات الإنسانية". "وهي علم السلطة المنظمة لجميع المؤسسات". كما أنها عند الجدليين الماديين هي "التعبير الأكثر تركيزا على العوامل المسيرة للحياة الاقتصادية".

وعلى رأي أبو دياب[1] فإنه مهما تشعبت وتعددت التعاريف حول مفهوم السياسة، فإن تلك التعاريف تدور حول السلطة، وحول ما يتعلق بها من أشكال وممارسات وتنظيمات.

وقد تفرع عن مفهوم السياسة عدد من المفاهيم من أهمها: النظام السياسي "الذي هو عبارة عن مجموعة من القواعد والأجهزة التي تضبط بواسطتها مرافق السلطة. وكذلك مفهوم "الفكر السياسي". الذي هو مجمل

---

1 – ينظر الفصل الأول من كتابه **المفاهيم الحديثة للأنظمة والحياة السياسية**، دار النهضة العربية بيروت، 1971.

النظريات الفكرية التي تدور حول السياســة". وكـــذلك مفهـــوم "الكفـــاح السياسي"[2].

ومن الناحية التاريخية فقد ورد مفهوم السياسة في الفكر اليونـــاني بلفـــظ (Politica) وبمدلولات متعددة، واستخدمت هذه المدلولات بشكل واضـــح في معنى المواطن وحقوقه، إذ تحدث هيرودرت عن الفكر السياســـي في الأنظمـــة السابقة وقسمها إلى:

أولا: نظام فردي.

ثانيا: نظام أرستقراطي.

ثالثا: نظام شعبي ديمقراطي.

وبقي هذا التقسيم في قناعات لدى من خلفه من المفكـــرين، ســـواء في العهد اليوناني أو الروماني[3]. وورد مصطلح السياسة في الدراسات الغربية الحديثة في مؤلف غاستون بوتول منذ سنة 1872[4] وظهر هذا المصـــطلح في المؤلفـــات العربية منذ سنة 1910، في مؤلف مصطفى صبري بعنـــوان "مبـــادئ العلـــوم الإنسانية والتاريخ الدستوري"[5].

---

2 – يراجع رايموند كارفيلد كيتيل، **العلوم السياسية**، ترجمة د.فاضل زكـــي محمـــد، ج1. ط3. مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد، 1963، ص. 4.

3 –طعيمة الجرف، **نظرية الدولة والأسس العامة للتنظيم السياسي**، الكتاب الأول، ط1 مكتبـــة القاهرة الحديثة، 1969، ص 195 وما بعدها.

4 – أنظر كتابه **سيوسيولوجية السياسة**، ترجمة نسيم نصر، ط3. بيروت 1982، ص12.

5 – وكذلك في مؤلف عبد الأحد سليم، **مبادئ علم السياسة**، مطبعة الهلال، مصر 1915.

وعلى رأي حسن صعب[6] توجد اليوم في العالم العربي الإسلامي ست طرق رئيسه لدراسة السياسة، وهي:

* الطريقة السلفية، وهي امتداد للمنهج الكلامي أو الفقهي حول الإمامة والخلافة والدولة

* الخلدونية، وهي دراسة لنشوء الدول ونموها وزوالها. وقد حاول اتباعها كثير من المفكرين المسلمين، ومنهم خير الدين باشا في كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" (تونس 1283هـ 1866).

* الحقوقية أو الدستورية وهي من مناهج غربية وتعد في نظر كثير من الباحثين الطريقة الأكاديمية الجامعية الصحيحة.

* العلمية السياسية التي تعتبر السياسة علما قائما بذاته.

* الدراسة المنهجية التاريخية للنظريات والنظم السياسية الإسلامية.

* اعتماد المنهج العلمي في الدراسات الإيديولوجية القومية وغير القومية/ نشوء الأمم.

ويمكن التنويه بما ظهر للعرب المسلمين من فكر في هذا اللون من السياسة، والدال على ذلك آثارهم، وأحداثهم التاريخية، وأقوالهم الشعرية، من ذلك ما قالت به الخنساء

ومعاصم للهالكين**وساسة قوم محاشد

وفي قول كعب بن جعيل في مدح سعيد بن العاص:

تسوس الذي ما ساس قلبك واحد ** ثمانين ألفا دراعين وحسرا

---

6 –حسن صعب، **مقدمة لدراسة علم السياسة**، ط.1، منشورات المكتب التجاري، بيروت 1961 ص.26.

وبناء على هذا يمكن القول إن الفكر الإنساني، والفكر السياسي جزء منه لم يظهر طفرة واحدة، إنما هو نتاج فكري واجتماعي قديم، متصل الحلقات بالحديث.

ومن تفاعل هذه والآراء والأفكار تتجدد المواقف وتتكون الأحزاب[12] وتكون المجالس الانتخابية وتتشكل البرلمانات، والأنظمة السياسية. هذه الأنظمة التي لا تتأسس على جهد وإرادة الأطراف فحسب، بل تحددها عوامل متضافرة ومتقاطعة، خارجة عن إرادة الأفراد أحيانا كالعوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

ولهذه الأحزاب والأنظمة ممارسات، علمية ونظرية. وهي التي تسمى بالكفاح السياسي الذي يقوم به شعب ما، أو مجموعة معينة، ضد قوة حاولت نقل إرادتها، وفرض سيادتها على ذلك الشعب أو على تلك المجموعة. ويتخذ

---

12 — تطورت الأحزاب بتطور الظروف، وشملت جماعات أوسع من العامة. وأول موطن ظهرت فيه بشكل واضح كان في أوروبا، ثم انتقلت إلى مستعمراتها وانتشرت خلال القرن العشرين في مناطق غير قليلة من الكرة الأرضية. وقد ورد مصطلح "حزب" كمفهوم عملي حديث في فكر سان سيمون، حيث ظهرت كتابات على لسانه دعا فيها البرجوازية إلى ضرورة تشكيل حزب للمعارضة.

وبذلك يكون سان سيمون قد وظف المعنى الحقيقي للحزب السياسي. وقد ذهب إلى أبعد من ذلك بأن قال إن "الإيديولوجية" غير كافية لتأسيس حزب سياسي إذ لابد من توفر شرط آخر وهو ضرورة التجاوب مع هذه الإيديولوجية، على أن تكون هذه الأخيرة متجاوبة بدورها مع متطلبات الشعوب والطبقات. للمزيد من المعلومات يراجع: سان ريمو، **نصوص ممتازة**، ترجمة سعد القضماني، منشورات وزارة الإرشاد القومي، دمشق، 1974، ص.31 وما بعدها.

الكفاح السياسي أشكالا في نظامه، ووسائل مختلفة، منها الكلمة والسلاح والمقاطعة.

وبناء عليه تكون معاني هذا المصطلح، في النهاية، هي الحصيلة الفكرية التي تقوم على تصور للواقع المشكّل من التراث الحضاري لذلك الشعب ولأهداف ونوايا ذلك النوع من الاستعمار، ومنه تنطلق حركة النضال فترسم الطريق، وتحدد الهدف لهذا الشعب، وتساهم في تشكيل تاريخه الذي هو في واقع الأمر تاريخ لفكره. وبهذا الكفاح تنشأ العلاقة -في مرحلة أخرى- بين الإيديولوجية والسلطة السياسية.

وخلال هذه العوامل والمراحل، تتحدد أنواع الأنظمة السياسية. إذ أنه بحسب التعريف الكلاسيكي (حتى القرن 19) تكون قد سادت الأنظمة السياسية على شكل حكومات هي: حكم الفرد الواحد (المونارشي). وحكم الأقلية (الأليقاركية). وحكم العامة (الديمقراطي). وهو ما عبر عنه مونتسكيو بالحكم الاستبدادي، والحكم الملكي، وأخيرا الحكم الجمهوري.

ثم تطورت هذه الأنظمة بتطور الظروف التاريخية، ونلمس ذلك التطور في المستويين النظري والعملي. فعلى رأي الدكتور عمار بوحوش تكون السلطة قد انتقلت، خاصة في أوروبا، من يد الحكام الأفراد إلى الهياكل السياسية القاعدية، وذلك بعد قبول الأفراد والجماعات من العامة العمل بالقوانين التي سطرتها القيادة السياسية[13]. وإن أسباب هذا الانتقال هو تطور الوعي السياسي بتطور الأسرة في القديم إلى قبيلة، وهذه الأخيرة إلى عشيرة ومنها إلى دولة.

13 – عمار بوحوش، **تطور النظريات والأنظمة السياسية**، ش.و.ن.ت. الجزائر 1977، ص.47.

إذ كان لكل قبيلة رئيس. ولما تشكلت "الدولة" ظهرت سلطة عليا، كان من أغراضها تحديد الأهداف العامة المشتركة وعدم الرضاء بحكم الفرد الواحد أو الأقلية.

وخلال تبلور هذه الأنظمة من الحكم، تطور الفكر وبشكل أعمق، في العصر الحديث، ومن تم كانت تلك الأنظمة الحقل الخصب لتجارب فكرية متنوعة، ونتج عن ذلك أن اتسمت بعض الدول بسمات مميزة في فكرها، مثلا اشتهر الألمان بالفكر الفلسفي، والإنجليز بالفكر الاقتصادي والسياسي، والفرنسيون بالفكر الاشتراكي، والعرب بالكفاح السياسي.

وأولى مراحل الكفاح السياسي، الوعي. وقد ظهر هذا الوعي في العصر الحديث عند العلماء وأنصاف العلماء الذين فضحوا نوايا الاستعمار، سواء في شكل أنظمة سياسية وأحزاب، أو في جماعات الضغط[14]، مستمدين قوتهم من العادات والتقاليد والقيم.

ويجرى الكفاح السياسي عادة على ثلاثة مستويات رئيسة هي:

الأول: يكون داخليا، بين الأفراد والجماعات، أو القبائل والعشائر، التي تناضل من أجل الوصول إلى السلطة والمشاركة فيها بشكل أو بآخر.

الثاني: بين السلطة الحاكمة وبين المحكومين.

الثالث: يكون بين رجال السلطة وجزء من المحكومين.

---

14 – وجدت جماعات الضغط منذ عصور سابقة، تقوم بها جماعة أو أفراد بهدف التأثير على السلطة، وقد وجد تعبير "جماعات الضغط" كمصطلح لأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. يراجع فوزي أبو دياب، **المفاهيم الحديثة للأنظمة والحياة السياسية**، دار النهضة العربية، بيروت 1971، ص.169.

ومن ثم يكون الكفاح عملا سياسيا منظم (قد يكـون محترفـا أو غـير محترف) تقوم به الأحزاب أو الجماعات أو الأفراد، مـن أجـل الوصـول إلى مناصب انتخابية أو الحصول على مقاعد عليا في مؤسسات الدولة. أو من أجل التأثير على السلطة والضغط عليها لوضع مشاريع معينـة خاصـة في البلـدان المستقلة. أو من أجل طرد القوة التي فرضت مخططاتها بشكل أو بآخر على تلك الجماعة أو ذلك الشعب، وهو ما حدث للشعوب الـتي حـاول الاسـتعمار احتواءها.

وعلى هذا الأساس يختلف الكفاح السياسي بل الصراع السياسـي مـن مستوى إلى آخر، ومن فترة تاريخية إلى أخرى، وكذلك تختلـف التفسـيرات حوله.

فالماديون الماركسيون[15] يرون المعارضة السياسية هي في الواقع ناتجة عن البنى الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك انطلاقا من مفهوم أن طرق الإنتـاج تحـدد وتولد طبقات اجتماعية متنازعة فيما بينها، منها المسيطرة ومنها المسيطر عليها، حيث تستخدم الأولى كل الوسائل المادية والإعلامية لاستخدام الثانيـة كـأداة طيعة من أجل تنفيذ مشاريعها، فما يكون على هذه الأخيرة إلا الثورة عليها.

وبهذا يكون الكفاح السياسي عملية طبيعية في المجتمع وظاهرة تاريخيـة، مبعثها الحوافز الإنسانية القائمة في أي مجتمـع، والدافعـة إلى الصـراع ضـد الآخرين، من أجل البقاء والحفاظ على الذات. ولهذا التفسير علاقـة بمـذهب

15 – يوجد فرق بين الماديين، والماديين الماركسيين.. لأن الفكر المادي وجد منـذ القـدم، إذ كانت آراء كثيرة مادية كأفكار الوضعيين، ولكنها كانت تؤمن بوجود الله ووحدانيته على خلاف الماركسين.

الفلسفة البرجوازية من حيث المنهج القائلة "بالتنازع من أجل البقاء". وإن كان عماد هذه الفلسفة الاقتصاد، وذلك عن طريق التنافس الاقتصادي الحر. والمقصود "بالتنازع" هنا الفكر الليبرالي.. لا الفكر الدارويني. لأن الليبرالية تولي أهمية أساسية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية، ولا تعير اهتماما للمساواة، والعدالة الاجتماعية.

ولما ينتقل "التنازع" من أجل البقاء من المستوى المادي إلى المستوى الفكري، يكون أكثر حدة، لأن عامل المنافسة في الميدان الفكري يفرز صفوة بل نخبة أكثر كفاءة، وأكثر قدرة في التأثير على الإدارة وعلى السياسة بوجه عام. في حين لما يكون "التنازع" على المستوى المادي يساهم في تشكيل طبقة حاكمة ومالكة للبلاد تتقاسم الإنتاج دون بذل الجهد المستحق، لأن الصراع القائم على الأساس المادي يكون طبيعيا، من جهة. ويكون الصراع عقليا ذاتيا من أجل الحصول على أكبر قدر من المصالح الذاتية من جهة أخرى. وإذا التقيا النوعان من الصراع المادي والعقلي تصعب عملية البناء والتطوير، لأن كل جهود ستنكب وتضيع حول أحداث الموازنة بين الأساس الطبيعي التاريخي والأساس العقلي الذاتي، ومن ثم يكون الكفاح السياسي غير المعتمد على الجانب المادي أكثر قوة وعمقا.

3– النخبة

والصفوة أو "النخبة"[16] (Elite) من المواضيع التي حظيت بعناية كبيرة في الفكر السياسي والاجتماعي، لأن هذا المفهوم أخذ حيزا كبيرا في الدراسات

16 – ظهرت كلمة نخبة خلال القرن السابع عشر، لوصف سلعة معينة ذات تفوق، ثم تطورت وشملت فئة اجتماعية متفوقة. وقد ورد هذا المصطلح سنة 1823 في قاموس: "أكسفورد للغة

الصادرة منذ القرن التاسع عشر. حيث ظهرت عدة تعريفات حول الصفوة. نذكر من هذه التعريفات: إن النخبة هي "الأقلية داخل ذلك المجتمع، وتمارس نفوذا متفوقا، على أن تكون هذه الأقلية متميزة بالتفوق داخل ذلك المجتمع، وتمارس نفوذا متفوقا، ولهذا يمكن أن يطلق عليها اسم "الصفوة الحاكمة"، أو "الصفوة السياسية"، أو "صفوة القوة السياسية" أو "الطبقة-الهيئة-الحاكمة". وعلى هذا فالصفة تكون مقرونة بمجال تخصصها، ففي المجال الثقافي يمكن وصفها "بالصفوة المثقفة".

ومهما يكن من أمر فإن مفهوم وعمل الصفوة مرتبط بالأطر الاجتماعية وبالنظم السياسية والممارسات الإيديولوجية، فهي تؤثر بشكل أو بآخر في القرارات السياسية.

أحيانا تحتكر الصفوة أوضاع محيطها فتسيطر على مردود الإنتاج في المجتمع، وعلى عقول الناس وتستطيع في النهاية بما لها من حسن التنظيم والتماسك، والدراية بالعوامل المحركة للحياة أن تسرق حقوق الأغلبية، بل وتستخدمها مطية للوصول لأهدافها. وبذلك يكون حظ ما يسمى بالديمقراطية قليلا عند الصفوة، حيث تصبح الديمقراطية مظهرا خادعا وشعارا ديماغوجيا، وذلك بحكم ما تأول إليه الأمور في النهاية، إذ تصبح السيادة للأقلية على الأغلبية. مثلما حدث للثورة الفرنسية (1789-1804) حين احتكرت البرجوازية الأوضاع، وسرقت حقوق الأغلبية واستخدمتهم مطية لتسيير الأمور لصالحها،

الإنجليزية" يراجع: بوتور، ت.ب **النخبة والمجتمع**، ترجمة جورج جحا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1./1972. ويراجع كذلك: إسماعيل علي سعد، **الاجتماع السياسي**، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1981. ص ص.142-143،147.

على الرغم من تظاهرها بمحبتها للعدالة الاجتماعية، ومناداتها بالشعارات "الحرية الأخوة والمساواة".

وعرفت الجزائر هذا اللون من الكفاح السياسي في بداية الاحتلال الفرنسي، وقد تمثل ذلك الكفاح في النخبة التي صارعت الفرنسيين، وسعت للوصول إلى السلطة وإلى التأثير على مشاريع الاحتلال.

وقد جنحت النخبة في الجزائر إلى مسلكين الأول تمثل في العنف، أي علاقات عدوان من الأجانب، ونفور من الجزائريين. والثاني تمثل في التفاوض والسلام. وهو ما عملت به النخبة الجزائرية في العاصمة. في حين أن النخبة الأرستقراطية (المتكونة من الشيوخ) خارج العاصمة عملت بالمسلك الأول فاستعملت المقاومة المسلحة.

وغالبا ما يحدث أثناء مرحلة ما أن تظهر "نخبة مضادة"، وذلك وفقا -أيضا- لمجال تخصصها مثلما سبقت الإشارة. فإن كانت النخبة قائمة على أساس اقتصادي فهي تمثل طبقة اجتماعية ذات امتياز أكثر تفوقا. وإذا كانت قائمة على أساس وجاهة اجتماعية فتكون طبقة أرستقراطية، تدعى عن وهم أو عن صدق -النبالة والشرف. وإذا كانت على أساس فكري فهي نخبة مثقفة، وقد تكون فقيرة ولا تنتمي لا إلى من يدعي النبل والشرف، ولكنها تنتمي إلى الفكر المتنور، أمثال الذين دعوا الجزائريين إلى ضرورة الأخذ بالمبتكرات الأوروبية .

ولهذا غالبا ما تتشكل النخبة من أعضاء الحكومة والإدارات العليا، وقواد الجيش، وشيوخ الأسر والقبائل ذات النفوذ السياسي والتاريخي والاقتصادي. وتضم النخبة المضادة أعضاء منافسين من أحزاب واتجاهات ومستويات مختلفة.

ولعل هذا ما يفسر موقف الماديين الماركسيين الرافض للنخبة، كأساس طبقي اجتماعي واقتصادي، معتبرين ذلك من رواسب الإقطاعية. وذلك اعتمادا على تفسير أساسه أن حكم هذه النخبة يتعارض مع حكم الأكثرية الذي تهدف إليه الاشتراكية. ومن جهة أخرى فمن نتائج حكم هذه النخبة قتل مواهب الآخرين وعدم مساعدتهم على التطور بغلق الأبواب أمامهم حتى لا يسمح بالمشاركة في الحكم.

4- النخبة والديمقراطية

يجرنا الحديث السابق عن النخبة إلى مسألة هامة وهي النخبة والديمقراطية، فهناك تعارض بين هذين المفهومين، فالأول -مثلما مر بنا- هو حكم الأقلية وتفوقها. في حين تعني وتهدف الديمقراطية-نظريا على الأقل- إلى ضرورة تطبيق مرحلة منظمة قصد الوصول إلى قرارات سياسية يتمكن معظم الأفراد من المشاركة والمساهمة في الحكم، وفي تسيير أمور البلاد وذلك بواسطة التنافس والصراع من أجل الفوز بتأييد الشعب ونيل حظوته عن طريق أصواته.

ويكون الصراع السياسي هنا تكافؤ الفرص السياسية أمام أفراد المجتمع. ولأن الديمقراطية مرتبطة أساسا بالسمات التي يتكون منها ذلك المجتمع. ومن ثم فإن أي عمل يراد القيام به لا يستند إلى الواقع القومي لا يمكن له أن يطبق وجها من وجوه الديمقراطية. لأن مهمة الديمقراطية تسهل عندما تكون متجاوبة مع مقومات ذلك الشعب؛ من دين وعادات وتقاليد. وفي حالة العكس تكون الديمقراطية كممارسة مجرد شعارات ديماغوجية أكثر مما هي شيء آخر.

ويجب أن نفرق بين نوعين من الديمقراطية السائدة حاليا. النوع الأول هو الديمقراطية الاجتماعية التي تحاول تطبيق قوانين تمس كافة القطاعات الاجتماعية مثلما هو الحال عند الدول الاشتراكية. والديمقراطية البرجوازية التي تمارس فيها الحرية السياسية من قبل طبقة معينة فوقية مثلما هو الشأن لدى الدول الرأسمالية.

ويصعب تطبيق الديمقراطية في شعب يعتنق أكثر من ديانة، ويمارس أكثر من لون من العادات والتقاليد، ويتكلم أكثر من لغة (مع استثناء في كل من سويسرا وبلجيكا..).

لأن هذا الفوارق من اخطر المشاكل التي تواجه تطبيق الديمقراطية، لأن مثل هذه الجمعيات التي تعيش هذه الفوارق تكون معرضة في أية لحظة إلى الانفجار، وإلى الحروب الأهلية.

وبالتالي يصعب التشريع، وتطبيق القوانين. فيصبح هذا الشعب بمكوناته عقبة أمام إرساء تقاليد لدولة ديمقراطية، وتكون سياسة الدولة في هذه الحالة إطارا للخلافات العامة داخل هذا المجتمع. ويصعب عليها تطبيق الديمقراطية، التي تعني من وجه آخر حرية الفرد والمساواة. ففي مثل هذه المجتمعات تفهم كل فئة الحرية والمساواة على أنها مكسب للتفوق. فتلجأ الدولة إلى وسائل كالقوة والعنف ضد بعض الفئات، وذلك بحجة حماية الوطن من خطر داخلي وخارجي. ومن ثم تأخذ الديمقراطية مظهر العنف.

ولقيت نظرية وجود نخبة ردود فعل رافضة/الماديون/للنخبة المرتبطة بالسوسيولوجيا والاقتصاد مكتفين بوجود النخبة من جانبها التاريخي فقط. ولم يعترفوا حتى بالعناصر التي وقفت في وجه الاستعمار الأوروبي قبل تأسيس الأحزاب السياسية كنخبة، واكتفوا بتسميتهم بالديمقراطيين الثوريين، أو

بالطلائعيين، على اعتبار أن النخبة هي في أصلها "برجوازية"، وعلى اعتبار منهم لهذه البرجوازية أنها كانت خلال مرحلة تاريخية، ثورية.

وقد لقيت مثل هذه الآراء معارضة قوية من القائلين بالنخبة، وهذا بناء على عاملين:

الأول: إن المفهوم الماركسي للطبقة محدود جدا. لهذا كانت أراء كثيرة فندت صحة هذا المفهوم.

الثاني: استحالة قيام مجتمع دون طبقات، لأن أي حكم كان وسيكون، لابد أن تسييره أقلية حاكمة. وحسب النظرية الماركسية نفسها فالبروليتارية سوف تتحول يوما ما إلى طبقة حاكمة.

وحسب هذا الطرح من قبل النخبويين، تكون حتمية مضادة للحتمية المادية، قد ظهرت على مستوى الفكر، فالأولى تقول بوجود طبقية مشخصة في النخبة المتفوقة، بينما المادية تقول بحتمية المجتمع اللاطبقي.

وفيما يتعلق بالجزائر وخلال تاريخها الحديث، أنه سبق وان وجدت نخبة جزائرية منذ أن دخل الفرنسيون أرض الوطن، وكانت هذه النخبة الحركة الأولى التي تزعمت لواء المقاومة السياسية؛ بل الكفاح السياسي، بعد أن نصبت نفسها للدفاع عن أبناء الجزائر، على الرغم من أنها لم تكن نخبة سياسية محترفة، وعلى الرغم من أنها لم تكن تنتمي إلى تشكيلة حزبية معينة.

5- إسهام جزائري في الإصلاح السياسي

ظهر تفسير آخر لبعض المدارس حول الكفاح السياسي، والمحدد في التفسير العرقي، الذي ينتقل فيه الصراع من الأفراد والجماعات إلى ما بين الشعوب. ويذهب هذا التفسير إلى القول بوجود مجتمعات أكثر قدرة من

غيرها. وعلى أساس هذه القدرة تكون الجدارة بالقيادة والامتياز. ومن ثم فمن الطبيعي أن يكون مجتمع حاكم متفوق ومجتمع محكوم أقل قدرة، وبذلك يكون الكفاح السياسي بين (القادر والأقل قدرة). يكون هذا التفسير قد وظف العامل البيولوجي في السياسة.

يظهر هذا التفسير ضعيفا خاصة لما يقول بوجود بعض المجتمعات مهيأة عرقيا للقيام بمهام سياسية تعجز عنها مجتمعات أخرى، أقل كفاءة وقدرة) وتكون هذه النظرية قد وظفت خلال مرحلة الاستعمار الواسع، لتتمكن الدول الأوروبية من دفع الشعوب التي استعمرت إلى الرضاء بالواقع المفروض عليها.

إن الجزائريين لم يخنعوا لهذه النظرية، لأنهم لم يرضوا بالاستعمار، بدليل أن الثورات على مستويات متعددة لم تهدأ منذ ساعة الغزو إلى غاية الاستقلال، بل ظهر فكر جزائري تصدى لمزاعم هذه النظرية، بدءا بأفكار حمدان خوجة[1].

وقد لقيت هذه النظرية القائمة على أساس عرقي، هجومات قوية من مختلف المدارس الماركسية والليبرالية، ومن الديانات كالمسيحية والإسلام، التي رفضت الأساس البيولوجي في التفاوت الاجتماعي. على الرغم ما تثيره هذه النظرية من تحفظات، إلا أن مفعولها كان كبيرا، إذ تم خلال موجة الاستعمار الأولى (القرن 16) والثانية (القرن 18-19) تقسيم المجتمعات الإنسانية إلى نوعين:

- مجتمعات أكثر تطورا وقدرة على التفوق.
- وأخرى إلى أقل قدرة لمسايرة متطلبات الحياة.

1- لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية 1827-1840**، دار البعث، قسنطينة 1987

وبناء على هذين النوعين صنف الأسود في الدرجة الدنيا من قاعدة الهرم البشري الكبير، على أساس أنه لم يطور نفسه، لعدم تمكنه من تطوير أدوات إنتاجه فأدى به المآل إلى البقاء في طور القبيلة البدائية.

أما الجنس الأصفر بإمكانه أن ينتقل إلى مرحلة يمكن خلالها الوصول إلى تأسيس دولة معقدة دون الوصول إلى الديمقراطية الواسعة.

ولا اليهود يستطيعون تأسيس دولة متطورة. لسبب رئيس متمثل في انشغالهم الشغوف بالتجارة والصيرفة والعلوم، زيادة على ما هم عليه من ذكاء.

وبوضع هذه النظرية في قالبها التاريخي يتضح ضعفها في مواطن كثيرة. فهي صادقة إلى حد من حيث وضعها للفروق البيولوجية/كالشعر، العينين، الجمجمة، التقاسيم/ لكن من حيث القابلية الذهنية ليس الأمر مثلما ذهبت إليه هذه النظرية، وتوجد أكثر من دلالة تؤكد هذا، من ذلك أن العرب المسلمين تمكنوا خلال مرحلة تاريخية من تكوين نظام حكم متطور، وتقديم مساهمات مشرفة في الفكر الإنساني.

وكذا نفس الشيء بالنسبة لليهود الذين أسسوا حركة صهيونية تمكنت من احتواء حتى الجنس الأبيض صاحب هذه النظرية. وإن كان هذا الاحتواء قد جاء في مرحلة متزامنة مع نوع آخر من الاحتواء. الذي تقوم به الإمبريالية، وذلك عن طريق المحافل الدولية وعالم المال والإعلام والتغيير التكنولوجي، واستعمال القوة بصورها المختلفة بقصد إخضاع الفكر وتوجيه وتشويه الواقع خدمة للأهداف الواسعة واللامتناهية. وعلى أساس هذا يمكن القول إنه إذا كان للأجسام وللأجناس لون وشكل، فالفكر لا لون له، ومن ثم فهو ليس حكرا لجنس دون آخر أو قفا عليه.

وبناء عليه فأي جنس يتمكن من تحليل الواقع تحليلا دقيقا، يكون قد تمكن من تطوير الواقع وتأسيس نظام قادر ومتفوق.

ومن عادة المفكر النزيه أن يرغم نفسه على قبول المنصب الذي يعرض عليه في بداية الأمر، خاصة إذا كان في ظل نظام عسكري، لا مجال للحرية فيه. وذلك لتحقيق غرضين. الأول حتى يبعد عنه الشبهات. الثاني. عسى أن يحقق منافع لأبناء بلده. ولكنه يرفض أي نوع من المناصب في النهاية، متى حاولت تلك السلطة استغلال موقفه لخدمة أغراضها، على حساب أفكاره وواقع بلاده. وهو ما حدث مع كثير من الجزائريين أمثال حمدان خوجة الذي تولى مناصب في ظل نظام الاحتلال (1830-1833)، ولكنه رفض الموافقة على مشاريع رجال الاحتلال وأفعالهم، وامتنع أن يكون أداة في يد السياسة الفرنسية، للتوسع على حساب الشعب الجزائري.

فكانت النتيجة أن واجهت حمدان خوجة وغيره من العناصر "الوطنية"، جملة من المشاكل بأن فرضت عليهم السلطة الفرنسية رقابة مشددة، وعلى أفراد أسرهم. وصادرت أملاكهم دون أدنى مبرر، ودون تعويضهم أي مقدار. ومع ذلك بقي كثير من المفكرين الجزائريين وفي مقدمتهم حمدان خوجة مخلصين لفكرهم ولقضايا مواطنيهم، سلاحهم الكلمة، من أجل إنقاذ البلاد وتطوير واقع الشعب الجزائري بوجه خاص. ومن أجل دفع الحرية إلى الأمام خدمة للإنسانية جمعاء، وخدمة لفكر ذلك العصر الداعي إلى صيانة حقوق الإنسان. والدال على ما نقول إن حمدان لم يكتف بعرض ووصف للواقع وترديد للنظريات والطروحات، إنما حاول أن يحكم على الواقع من خلال فضحه للسياسة الفرنسية المطبقة في الجزائر، ولسياسة الحكومة الفرنسية نفسها الرامية إلى

التضحية بالشعب الجزائري. وأيضا حاول أن ينظر وإن كان بشكل محدود لمستقبل الجزائر ولمستقبل العلاقات الفرنسية بالجزائر. وهذا واضح من خلال ما قدمه حمدان للرأي العام الأوروبي عامة وللرأي العام الفرنسي، الشعبي والرسمي بوجه خاص؛ حيث طرح من خلال مواقفه قضية أساسية ألا وهي حقيقة الشريعة الإسلامية التي تختلف عن سياسة الحكام المسلمين. حيث عرف حمدان بحقيقة الشريعة الإسلامية، قائلا عنها – للأوروبيين– بأنها تختلف في جوهرها مع ما طبقه المسلمون (الخلفاء). وعرف كذلك بأهم المؤسسات والهياكل التي كان يعتمد عليها الشعب الجزائري في حياته اليومية. بعدها قدم تحليلا لواقع السياسة الفرنسية مبرزا ما بها من ضعف باعتمادها على وسائل بدائية كالعنف والتعسف بلا مبرر، في حق الشعب الجزائري، الذي تزعزع في كل مؤسساته.

ولم يكتف حمدان بهذا، بل قدم كوجهة نظر متطورة، لتفادي تطبيق تلك الوسائل البدائية، ولوضع نظام حكم متطور في الجزائر، يكون في خدمة الطرفين الجزائري والفرنسي. ومن هنا يمكن الحكم على حمدان خوجة أنه من الأوائل الذين تصوروا نظام حكم لدولة عصرية.

وبناء على هذا، يعد حمدان في رأينا من العناصر المفكرة في النخبة الجزائرية. إذ استطاع أن يقدم وجهات نظر عميقة، خاصة لما انتقل إلى باريس (1833). أقول لما انتقل، لأن الفترة التي سبقت هذا التاريخ، مال حمدان خلالها مثل أغلب أكابر العاصمة إلى السلطة الفرنسية حينا، ونفروا منها أحيانا أخرى، لهذا جاءت مواقفهم ووجهات نظرهم غامضة ومتناقضة، وفقا لغموض الفترة وتناقض السياسة الفرنسية نفسها، واختلاف سياسات رجال الاحتلال، خاصة، حول مصير الجزائر. لأن السياسة الفرنسية أخفت أهدافها الحقيقية وأظهرت

سياسة مزعومة/الجلاء/الأمر الذي دف بكثير من الجزائريين إلى الإقبال والميل إلى الصف الفرنسي لفترة زمنية.

ويفهم الدارس من مواقف النخبة الجزائرية، وفي مقدمتهم حمدان خوجة أهم لم يلتزموا الحياد، على الرغم من توليهم المناصب في ظل الاحتلال و لم يعلنوا الثورة ضد الفرنسيين. وعلى الرغم مما قاله حمدان خوجة نفسه بما يمكن ترجمته: وفي وسط جميع الاحتيالات والمراوغات الفرنسية، كان يمكن علي أن أتحيز إلى حزب معين، وأنا الذي كنت أتولى أحد الوظائف السامية في العهد العثماني وبقيت على الحياد، وهو ما كان يتطلبه تقدم سني ومصالح عائلتي الكثيرة العدد[17].

إن ما أبداه حمدان وأمثاله ليس حيادا مطلقا، وليس لتقدم سنة ومصلحة عائلته، إنما كان وفقا للواقع الغامض، من جهة. ولعدم توفر الإمكانيات للقيام بالجهاد، من جهة أخرى. وهذا شأن أي مفكر الذي يصعب عليه أخذ موقف معين أو الانتماء إلى حزب معين، أو اتجاه معين. لأن الالتزام بموقف معين يتطلب -كشرط أساسي- دراية كاملة للظروف السائدة آنذاك. وللعوامل المحركة لتلك الظروف، وللأهداف المراد تحقيقها، من طرف تلك القوة المسيطرة. وبهذا وقام وظهر جيل آخر عهد الاستعمار الفرنسي بثورة الإصلاح الحقيقية تمثلت في الحركة السلفية العقلية، التي قادها الإمام ابن باديس. و في ثورة التحرير (1954) حيث واجهت كلمة الجزائري المؤمن بأصالته إصرار المستعمر، وتنظيره وأوكل لجيل الاستقلال مسؤولية الإصلاح الواسع، الإصلاح

17- Hamdane Khodja (Sidy) « Réponse à la réfutation de l'ouvrage d'Hamdan » **Extrait de l 'observateur des tribunaux** T IV, Dezauche. Livraison 3,4. Paris 1834.

الفكري وتحمل المسؤوليات كاملة، للقضاء على المخلفات من مـرض وجهـل وفقر، لتفادي الاحتواء الثقافي المطلق. وهو من السهل نسـبيا يمكـن تحقيقـه بالمقارنة مع ما كان عليه الحال خلال مرحلتي التوسع الفرنسي. حيـث كـان الجزائري خلالهما يعيش ظروفا صعبة ومع ذلك انضم إلى المقاومـة المسـلحة، فذاق من لذة الاستشهاد، ومرارة النفي. أما اليوم فالأمر يختلف حيث أن المفكر حر في بلاده تحميه اختيارات البلاد وتدفعه المواثيق إلى تحمل المسؤوليات كاملة، والمطلوب الآن شيء من الشجاعة والأمن، لتوسيع دائرة العقل والعمل، ولتطبيق القوانين، وصيانة الأخلاق، ولو تم ذلك فإن عزة النفس تحفظ، والتفاني في حب الوطن يتعاظم، والاعتزاز بأثر الماضي وخلده يتضاعف.

لأن ما من أمة نهضت من سباتها إلا إثر صيحات رجال منها آثروا خدمة مجتمعاتهم على خدمة ذواتهم وفضلوا العمل من أجل الهدف الأسمى (الخالد) على العمل من أجل الهدف (المحدود) الفاني فدفعوا حياتهم ثمنا لتقدم ونهضـة أممهـم ورقيها كما دفع الشعب الجزائري مليونا ونصف المليون إبان الثورة التحريريـة وحدها، من أجل طرد الاستعمار [22].

وصفوة القول إن لتحقيق هذا الهدف لابد من تضافر الجهود على مختلف المستويات جهود "المثقف" و"السياسي" و"العامل" و"الفلاح" كـل في موقعـه وخاصة المفكر الذي له القدرة على رسم الطريق المعلوم، سواء كان هذا المفكر يتولى مسؤوليات في السلطة أو كان ينشط ضمن أفراد القاعدة النضالية. ويجب ألا تكون وصاية على المفكر المصلح، حتى لا تكون المصادرة في حقه، خاصـة

22-محمد زتيلي **فواصل في الحركة الأدبية والفكرية الجزائرية**. البعث، قسنطينة.1984. ص 20.

وإنه يحمل نظرة حضارية، بإدراكه للعوامل التي حركت والتي سوف تحرك واقع بلاده. ولأن هدفه كهدف الجميع مهما اختلفت وجهات النظر وتباعدت هو السعي لتكوين قناعات وطنية عميقة بعيدة عن السطحية والخطابية، بعيدة عن التفاخر ولغة المناقب والتهريج وبذلك تكون خدمة الشعب خدمة صادقة.

ملكية الأرض في الجزائر العاصمة وأحوازها

بداية الاستيطان الأوروبي

سبق وأن تناولنا موضوع ملكية الأرض في كتابنا من الملتقيات التاريخية[1]. وتحدثنا فيه عن أنواع الأراضي السائدة آنذاك في الجزائر. وكيف تعاملت معها السلطة الفرنسية.إذ أن الأرض كانت تمثل العمود الأساس في حياة الجزائريين؛ وتأتي بعدها "القرصنة" ثم التجارة والحرف الصناعية. ونحاول الآن الحديث عن ملكية الأرض في الجزائر العاصمة وأحوازها فقط.

يتبين من الدراسات المنشورة التي استخلصت من الإحصاء الذي قام به كلوزال (تولى منصب القيادة العامة مكان دي بورمون يوم 1830/9/2) ومنها الدراسة المنشورة في المجلة الإفريقية[2] التي بينت أن مدينة الجزائر كانت بها آلاف الملكيات من الأرض. والسؤال الذي يمكن طرحه هو بيد من كانت تلك الملكيات من الأراضي؟

فبرغم ما يعرف على المدينة مثل مدينة الجزائر من أن سمة الحياة بها كانت تتميز بالتجارة والصناعات الحرفية لكن أن هذه المدينة تميزت كذلك بالملكية العقارية في أحوازها.

---

1 – دار البعث، قسنطينة 2001

2-Aumraṭ , « la propriété urbaine à Alger », in **Revue Africaine.** No 41 année 1897

لأن الأرض بالنسبة للجزائريين تعدّ هويةً قبل أن تكون مردودا ماديا. وكانت هذه القناعة القاسمَ المشترك بين كل الجزائريين، وعاملَ توحيد، ودافعا قويا لمحاربة كل من حاول الاستيلاء على هذه الأرض.

ولعل هذه القناعة هي التي دفعت نوشي إلى اعتبار النظام العقاري في الجزائر هو السبب في وجود توازن بارع ساد بين الفرد والجماعة، من جهة. وبين الإنسان والتقنيات، من جهة أخرى. وبينهما والأرض، من جهة ثالثة[1]. وبينها وبين السلطة القائمة. وبقي هذا التوازن إلى أن جـــاءت الحملة الأوروبية بداية من عام 1830. حيث حدث تحول كبير في المجتمع الجزائري.

فالجزائر العاصمة كانت بها 8000 ملكية عقارية قبيل احتلالها، وكانت هذه الملكيات بيد رجال الحكم، بجانب ملكية بيت المال، وملكية خاصة وملكيات الخدمات العامة.

فالملكية التي كانت بيد رجال الحكم تسمى بايلك[2]، وقد قدرت بـ 5000 ملكية عقارية من مجموع 8000. وقد قدرتها السلطة الفرنسية عام 1831 بقيمة 40 مليون فرنك.

وكان الداي يتصرف في هذه الملكيات بإرادة مطلقة، إذ كان يمنحها لمن يريد، وينزعها حين يشاء. ولعل ساسة الدايات هذه من الأسباب هي التي دفعت الجاليات الأجنبية من مسيحيين وإسرائيليين إلى ممارسة التجارة من دون

1- Nouchi (A.), **Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'à 1919**, Paris 1961.

2- البايلك يعني الدولة، وعليه تكون هذه الملكية في المفهوم الفرنسي الدومين وهي ملكية مشابهة لما في فرنسا من حيث التصرف بها. أي أن للباي الحق في أن يتصرف فيها بإرادته.

التفكير في ملكية الأرض. مثلما تكون سلوكيات الداي أحد الأسباب التي دفعت المسلمين إلى أن يوقفوا على ذويهم وعلى المؤسسات الخيرية أراضيهم للانفلات من المصادرة.

وكانت ملكيات كثيرة في العهد العثماني تصادر وتباع بالمزاد العلني، وكانت عائدات البيع تعود إلى خزينة الدولة. والذي يشرف على هذه العملية هو الخزناجي. وبسقوط النظام السياسي وعلى رأسه الداي تحولت هذه الملكيات إلى السلطة الفرنسية، أي إلى الدومين. بجانب الملكيات الأخري التي استولت عليها السلطة الفرنسية، وهي:

* أملاك بيت المال، وهي الأملاك الشاغرة من دون مالك لها أو وارث، وبعض الأملاك المصادَرة. وتكون هذه الأملاك تحت إدارة باش عدل. وكان بيت المال يقوم بمهام كثيرة مثل إعانة الفقراء، بإطعام 200 منهم كل يوم خميس ودفن الموتى، وتقديم هدايا للداي وللضباط، وتمويل خزينة الدولة.

* الملكية الخاصة، إذ مثلما هو متعارف عليه في الشريعة الإسلامية أن الأرض ملك لله، وللإنسان النفع بها فقط. وكانت هذه الملكية بيد المسلمين، ولهذا لم يتم بيعها إلى الأوروبيين، إنما تم كراؤها أو الاستيلاء. وقد قدرت بـ 2000 ملكية.

* ملكية الخدمات العامة، وهي كانت ملكية فلاحية وخدمات عامة مثل تعبيد وصيانة الطرق وإعانة حجاج وفقراء مكة والمدينة. إذ كانت للمساجد ولزوايا المرابطين وفقراء الأندلس ملكيات ينتفع بمردودها.

لأن المساجد كانت كثيرة في الجزائر العاصمة إذ بلغت 103 مسجدا (14 مسجدا حنفيا و 89 مسجدا مالكيا) وكانت ملكيات الخدمات العامة تحت

إشراف المفتي والوكيل. مثلما كان للانكشارية المتواجدة في 7 ثكنات ملكيات أيضا ينتفعون بمردودها[1].

وبسقوط النظام العثماني صارت هذه الملكيات بيد الفرنسيين، وبحكم ما هو متعارف عليه عند الأوروبيين آنذاك أن أملاك المغلوب تصير بيد الغالب لهذا تصرفت سلطة الاحتلال بهذه الملكيات بإقامة مشاريع مثل تعبيد الطرق من دون أن تجد من يمنعها.

1- لمزيد من المعلومات يراجع:

Aumrat, «La propriété urbaine à Alger », in **Revue Africaine** No 41, année 1897 p-p 320-330

اعتماد المكاتب العربية في المقاطعات

في 08 أوت 1854 وبطلب من الماريشال فيون (Vaillant) وزير الحربيـة أمضى نابليون الثالث مرسوما يتعلق بإنشاء المكاتب العربية بصفة رسمية وواسعة في الجزائر، بعد أن كانت تعمل من دون تعيين بمرسوم وتحت اسـم مكاتـب الشؤون العربية. فجاء هذا التعيين بناء على مستجدات كثيرة منها:

- كثرة الأراضي التي استولى عليها الاستعمار، خاصة في إقليمـي قسـنطينة ووهران.

- تطبيقا للمرسوم 12 سبتمبر 1853 الذي نص علـى وضـع أغلـب السكان الأصليين تحت التصرف المباشر لسيادة والي الولاية (البريفي).

- نجاح السياسة التي طبقتها مكاتب الشؤون العربية في إدارة السكان.

لقد تحدث بوايير عن بدايات الإدارة المدنية للأهالي بذكر العراقيـل الـتي واجهت السلطة الفرنسية من قبل الضباط العسكريين في الجزائر الذين رفضـوا أي شكل من أشكال الإدارة المدنية في الجزائر.

كان ذلك الخلاف مستمرا برغم الأمر الوزاري المـؤرخ في 1 سـبتمبر 1834 الذي حاول أن يضع حدا للخلاف الحاصل بين الحاكم العام العسكري والمحافظ المدني بتحديد سلطة كل واحد منهما.

بينما في مادتي 12 و13 من مرسوم 15 أفريل 1845 تم إلغـاء التقسـيم القديم « Ration loci » ليفسح المجال لظهور أشكال إدارية فكانت إدارة مدنية أوروبية وإدارة مختلطة وإدارة عربية.

وفيما يخص الأهالي الذين يعيشون في المدن المختلطة فإنهم كانوا يخضعون لرؤسائها أي رؤساء البلديات (Maires). في حين أن القبائل الخاضـعة للقـادة

والشيوخ فإنها كانت تابعة إلى السلطة المدنية، وكذلك السلطة العسكرية التي تراقب التعيينات والمراسلات عن طريق الوسيط المتمثل في شخص مدير الشؤون العربية (من المادة 92 إلى 100) ونصبت أكثر من لجنة استشارية في كل إقليم من التراب المدني والتي تضم إلزاميا ضابطا للشؤون العربية.

وفي يوم 16 ديسمبر 1848 كانت سلطة الوالي (البريفي) قد توسعت على حساب الإدارة المدنية للأهالي في المقاطعة، في حين أن المادة 16 من نفس الأمر قد بينت أن شيوخ المدن المسكونة بالأهالي كانت تابعة لهذا البريفي. وأضافت المادة 16 أن القبائل التي تعيش تحت الخيم تبقى خاضعة للقانون والإدارة العسكرية. وقد استفيد منه بإبقاء العسكريين يراقبون المتنقلين البدو. ثم إن ما دفع الفرنسيين إلى إيجاد إدارتين بالجزائر هو بحثهم على مبرر لوجودهم بدافع حكم شعبين يختلفان تمام الاختلاف في العادات والتقاليد والدين ومحاولة توحيدهما.

وبموجب قرار 15 أفريل 1845 أنشئت المقاطعة الإقليمية في الجزائر، فالجزائر مثلا لم تعرف أبدا الإدارة العسكرية المنظمة. إذ منذ 22 أفريل 1834 كان الساحل كله ينقسم إلى بلديات. فقرار 11 سبتمبر 1834 أعطى الإشارة لتمليك الفرنسيين وذلك بإنشاء المحافظة الجزائرية وإنشاء محافظتين إضافتين في كل من وهران وعنابة ومحافظتين مدنيتين واحدة في بجاية وأخرى في مستغانم، وفي سنة 1842 أصبحت بوفاريك ودويرة والبليدة تشكل محافظات مدنية.

وبموجب المادة 19 من أمر 18 ديسمبر 1842 أصبحت المحافظات المدنية تمارس وظائف ضباط الدولة المدنية في مجال أقصاه 20.000 متر مربع حول مقر المحافظة.

وعشية تحويل هذه المحافظات إلى مقاطعات فإن التراب المـدني للإقلـيم الجزائري كان يتربع على: مقاطعة الجزائر وتضم: الجزائر المدينة وجزائر الساحل والدويرة وشرشال وتنس والفندق الذي يمتد حتى البليدة.

أما عدد السكان الذين كانت تضمهما هاتان المقاطعتان فيقـدر بـ 25000 شخص حسب إحصائيات 1848 –1849 ويتمركـزون في المـدن القديمة خصوصا الجزائر والبليدة.

أصل المكاتب العربية:

إن جهل الميزة الخاصة للمشاكل الإدارية، وكذا تسيير أمـوال الحبـوس المسندة لجماعة مكة والمدينة أدى إلى صدور أمر 13 جانفي 1841 الذي أنشئ تحت رقابة المديرية الداخلية في لجنة مكونة من 05 أعضاء مسلمين يسـاعدهم مكتب يشمل السكرتير الفرنسي ووكيل المال وشاوش وشخصين عدلين وممثل المديرية الداخلية بمساعدة مجلس الشورى الذي يعمل على توجيـه أعضـائه. والملاحظ أن العنصر الفرنسي أصبح ينمو بسرعة ففي جويليـة 1843 ضـم السكرتير المترجم ورئيس المكتب وعاملين. ولتبرير هذه الزيادة أشـار مـدير الداخلية في جلسة مجلس الإدارة للمستعمرة إلى أن المكتب سيصبح " المكتـب العربي لمديرية الداخلية" بينما العنوان الرسمي له سيبقى " مكتب الإحسان الذي يرتبط باسم ديلابورت Delaporte الموظف الحاذق الذي أخذ يوسع في كل مرة خدماته ليحصل على ترقية، حتى درجة مدير المكتب العربي لمقاطعة الجزائر

وفيما يتعلق بجاك دينيس ديلابورت (Jaques Denis De la porte) فلإنـه ولد في طرابلس الغرب عام 1777وهو ابن قنصل قديم لفرنسا، وقد لعبت هـذه العائلة دورا كبيرا في العلاقات بين فرنسا والدول الإسلامية. وقد تـابع دي لا

بورت حملة نابليون على مصر ثم عين فيما بعد مترجم لرئيس الجيش الإفريقي في 1832 ليصبح في 1836 مدير الشؤون العربية في الجزائر. أحيل على التقاعد سنة 1841 أما أمه أنجلينا بيجيني فأصلها إيطالي. وقد سمح لديلابورت تكوينه القانوني وتجربته من أن يتعرف على الاختلافات والجدليات الموجودة بين شعوب البحر الأبيض المتوسط، لذا نجده يتحمل المسؤوليات الهامة في الجزائر دون كبير عناء مثل توليه كموظف في المحافظة المدنية بالجزائر في 10 ديسمبر 1831 ثم سكرتير المترجم.

وقد استطاع بفضل خبرته أن يحصل على ترقيات سريعة وقد سمح له بإنشاء مكتب الإحسان الذي فتح به آفاقا جديدة استطاع بعدها أن يظفر بالبقاء في الجزائر وأن يرتمي في المشاكل الإدارية والمدنية للأهالي، وقد سندت له مديرية المال لتسيير مداخيل الحبوس للمسجد الكبير. نتيجة للتطور الذي حدث في مكتب الإحسان، فصدر أمر 20 أكتوبر 1843 أقر بإعادة تنظيم مديرية المال تحت اسم "قطاعات الإحسان والدين الإسلامي" حيث أصبح يتشكل من السكرتير المترجم وسكرتير واحد وعاملين. بينما عرف ممثلي المسلمين تخفيضا إلى شخصين عدلين وشاوش.

إن إنشاء مكتب خاص يعتمد على الإدارة الأهلية المحلية أخذت تتزايد أهميته شيئا فشيئا مما أدى بمدير الداخلية أن يطلب من جديد إنشاء إدارة تجمع بين الصلاحيات الإدارية والأمنية ولكن المعنيين رفضوا هذا الطلب مما جعل المدير يتخذ قرارا بتحويل قطاع الإحسان والدين الإسلامي إلى "قطاع إدارة الأهالي" وهذا حسب أمر 1846.

وفي سنة 1847 سحبت مهمة تولي رقابة الجماعات الأهليـــة مـــن إدارة البلدية وقد كان ذلك نتيجة للتحقيق الذي حصل في جانفي 1847 مما أدى إلى اكتشاف عدم التنظيم والتنسيق بينها، أي بين هذه الجماعات. يتعلق الأمر هنا بالجماعات العرقية الموروثة عن الأتراك العثمانيين والتي تضم العناصر الأصــلية لإقليم الأيالة والذين أرسلوا في أعداد كبيرة إليها، ويمثلون كتلة البرانية بخـــلاف البلدية ونذكر من تلك الجماعات القبائل من أصل القبائل الشرقية الآتية مـــن جرجرة. وبسكرة. والميزابيون. وقبائل البيبان. والأغواط. والسود.

وقد وافق وزير الحربية على ما قدمه "دوماس" في تقرير له بتاريخ 21 أوت 1847 الذي دعا إلى ضرورة إنشاء مكتب عربي مدني أخذ فيما بعد اسم "مكتب الإدارة الأهلية" الذي تشكل من العناصر الآتية: 1 – رئيس المكتب 2 – نائب الرئيس 3 – مفتشين 4 – مقرر 5- اثنين من الجنود ووكيل المال 6 – شخصين عدلين 7- (ثمانية أمناء) منهم خمسة أعضاء من لجنة الإحسان 8 – شاوش 9 – الخادم. يضاف إلى هذه القائمة ستة أمناء من الجماعات وخوجاتهم. وفي تقرير مطول لدي لا بورت أرسله إلى المدير العام للشؤون المدنية اقترح تعييناته لتولي الشؤون العامة وكذا التعيينات المطلوبة وفقا لهذا الملخص: مراقبة المؤسسات الدينية والتعليمية و طرق التعليم. ومراقبة إسناد الوظائف. ومراقبة أسواق الأهالي والعبيد السود. ومراقبة الأماكن الفرنسية المعنية بالأهالي والأماكن المختلطة. دراسة كل المشاكل الصناعية والتجارية للأهالي ودراسة طرق القوافل. نجدة الأهالي وقدماء الموظفين منهم خصوصا حجاج مكة. وبشكل عام وخاص لكل من قوائم القضاة. الاستعلامات العامة. و المقابر و الموسيقيين وشرطة الأعياد و السماسرة والمضاربين وأمناء السكة.

ولخوان وشيخ الساحل. والجماعات المهنية. و الأمناء وأعمالهم. ومراقبة الحمالين. والمحاكم الإسلامية.

وقد انطلق دي لا بورد من تقدير لعدد سكان مدينــة الجزائــر (1841-1847) الذي كان حوالي 17000 نسمة، و12000 من الموريسكيين و5000 من البرانية. وقد كان لانقلاب عام 1848 دور كــبير في إفقــار هــذه الشــريحة الاجتماعية التي كانت تزدهر بالصناعة التقليدية.

وفي 19 أفريل 1848 وافق الحاكم العام (Cavaignac) على كل مقترحات Delaporte . وفي هذا التاريخ كان مكتب إدارة الأهالي تابعا إلى المسجد الكبير بالجزائر تحت اسم " المصلحة الخاصة للإدارة المدنية لأهالي الجزائر ".

في نهاية 1852 أعلن بأن مراقبة العدالة الإسلامية ألحقت نهائيا إلى مكاتب عربية في كل دائرة بالمقاطعات. وفي يوم 08 أوت 1854 صدر مرسوم يعتمــد المكاتب العربية في الدوائر . وبصدور هذا المرسوم وضع حــد لنقــاش دام 10 سنوات.

الإدارة والمقاومة في منطقة قسنطينة

أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي[1]

الفكرة الرئيسة

* سادت مقاطعة قسنطينة أواخر العهد العثماني سلطتان الأولى في المدينة والثانية في الريف. الأولى برئاسة الباي والآغا والباش حامبا والديوان المشكل من أعيان المدينة. والثانية برئاسة الشيوخ والمخزنية. وباحتلال الفرنسيين مدينة قسنطينة صار النظام الإداري يتكون من خمس هيئات وهي: المجلس الحربي، والمجلس الأهلي الخاص، والقائد العسكري الذي هو حاكم الناحية، وقائد المدينة، والخليفة. وقد لقيت هذه السياسة مقاومة جزائرية عنيفة.

* **السؤال الرئيس** الذي يمكن طرحه هو ما هي أهم التحولات في السياسة الإدارية الفرنسية؟ وما هي ردود الفعل الجزائرية؟

*** أهم المصادر والمراجع المعتمدة في هذه الورقة:**

دي نفا، "وضعية إقليم قسنطينة ما بين الفترة 1839 إلى 1842"، أرشيف وزارة الحربية الفرنسية-فانسان، باريس ، H235.

1- لأعدت هذه الورقة بمناسبة انعقاد ندوة المؤسسات الحضارية بين مقاومة الاستعمار والتـأقلم مع الحداثة يومي 13-14 ديسمبر 2004 بجامعة منتوري-قسنطينة

*محتوى المداخلة

أسس نظام الحكم العثماني في بايلك قسنطينة سلطتين، الأولى في المدينة والثانية في الريف. وفيما يتعلق بالسلطة الأولى عهد الحاج أحمد الذي تعين بايا على قسنطينة عام 1826 فالمصادر ومنها ما كتبه علي أفندي بن حمدان خوجة[1]، تذكر بما يمكن ترجمته على هذا الشكل: **عين الداي حسين الحاج أحمد بايا على بايلك قسنطينة. وكان هذا البايلك من المقاطعات التي يصعب على أي كان حكمها. وكان لوالدة الحاج أحمد باي التي جاءت من قسنطينة إلى الجزائر مزودة بثروة مالية معتبرة دورٌ محتملٌ في التأثير على الداي لرفع ولدها إلى هذا المنصب. وهي لا تزال على قيد الحياة إذ عندما كنت في قسنطينة رأيتها أكثر من مرة[2]. والذي أثار انتباهي واستغرابي أكثر نحوها هو أنها لم تكن ترتدي النقاب أثناء خروجها باستمرار.**

..., le Beylik de Constantine dont personne n'était capable de se charger tant le pays est difficile à gouverner, lui (Hạdj Ahmed) fut donné par Hussein Pacha. La mère d'Hadj Ahmed qui était venue de Constantine à Alger avec la Bourse bien garnie, eut probablement quelque influence sur l'élévation de son fils. Elle vivait encore lorsque j'étais à Constantine ou je là vis souvent, ce qui me frappa le plus en elle, c'est que jamais elle ne portait de voile bien qu'elle sorte fréquemment.

---

1 – ينظر ما ترجمناه بعنوان: **وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عبر الجبال 1832**، المكتبة الجامعية غريان ليبيا، 2003

2 – كانت زيارة حمدان برفقة ولده علي في صيف 1832، وقد رافقت الحاجة رقية ولدها الحاج أحمد باي حين انتقل إلى الأوراس بعد سقوط قسنطينة سنة 1837 وتوفيت هناك، وهي دفينة نقاوس، ينظر:

Mémoires de Desvaux , **Archives de la bibliothèque des Invalides** , Paris M737

إذن بتولي الحاج أحمد الحكم على قسنطينة عين مساعدا له ليكون الرجل الثاني في المدينة وهو الباش حامبا المسمى ابن عيسى برتبة قائد عسكري أعلى. وهو أصله من القبائل المتوطنة بشمال قسنطينة، عينه لسبب قد يكون تقليدا بباش حامبا في نظام الحكم بتونس، وقد يكون لهدف جزأرة إدارة الحكم في البلاد، لمزيد من التحكم في سكان الساحل، وللتخلص من نفوذ الأتراك في الحكم. وعن ابن عيسى يقول علي أفندي بن حمدان خوجة الذي تحدث وجلس معه بما يمكن ترجمته: **فدخلنا المدينة في المساء وقبل دخولنا إليها أعطينا اسمينا إلى القصبجي ونزلنا عند ابن عيسى. واستقبلنا باحترام ولكن من دون حفاوة. وحكمت عليه في النهاية بالرجل الجاهل الذي لا يستطيع التحكم في المناقشة. وقمت بزيارة إلى ابن حجوج الصيرفي وهو أكبر الأغنياء من سكان قسنطينة وصديق حميم لوالدي.**

Ben Ayssah.. Cet homme ne connaissait pas personnellement mon père … quand nous entrâmes, nous donnâmes nos noms au Qasbadjy qui était à la porte.. Ben Ayssah nous reçut avec politesse, mais sans cordialité... Nous restâmes à dîner avec lui et bien qu'il fût obliger d'être polit .. je juge aussitôt qu'il était grondant, et ne savait pas trop soutenir une conversation

في حين تتحدث مراجع أخرى عن علي بن عيسى عكس ما تحدث به علي أفندي، خاصة فيما يتعلق بشجاعته، وهذا من العوامل التي شجعت السلطة الفرنسية على تعيينه خليفة على الساحل.

أما السلطة الثانية التي أسسها نظام الحكم في الريف فقد كانت تستند إلى الأعراش والقبائل المخزنية التي كانت تتشكل من مجموعات سكانية ذات صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية. وهي إما من أصول مختلفة، أو من نسب واحد. ومن القبائل المخزنية نذكر قبيلة الزمول والأعشاش اللتين شكّلتا الطرف القوي

الذي ثبته النظام العثماني كقوة مخزنية لمحاربة بني مراد الثائرين[1]. مثلما ثبت النظام الحاكم كذلك أولاد عامر وأولاد رحمون وهما أسرتان موسعتان عريقتان لعبتا دورا كبيراً في أهم الأحداث أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي.

وتشكلت المخزنية كذلك من عشائر عريقة أعلنت ولاءها أو فُرض عليها التزام الطاعة. وهو الأمر الذي يدفعنا إلى مشاطرة الرأي الذي ذهب إليه مبارك الميلي حين اعتبر أهل المخزن رجالَ الإدارة والحكم الذين يعيشون على حساب الآخرين[2]. وفي رأي بعض الدارسين إنما المخزنية في الجزائر هي قوة مأخوذة من البلاد لحكم البلاد[3].

وفي رأي الحاج أحمد باي فإن السياسة العثمانية اعتمدت على هذه القبائل المخزنية، مثلما اعتمدت على إثارة النعرات والحروب بين القبائل حيث ذكر "**أما أوضاع السلم فإنها تقارب بين العرب وتوحدهم حول غرض واحد**"[4]

وكان عدد المخازنية في بايلك الشرق كبيرا جدا، ففي ميلة مثلا كان يمكن استنفار 10 آلاف فارس في الحالات القصوى لحفظ الأمن وجمع

1- A.O.M. M90.

2 – الميلي، مبارك، تاريخ الجزائر القديم، ج.3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر 1964 ص.300.

3- Esterchazy (W.), **Domination turque dans l'ancienne Régence d'Alger** Goussin, Paris 1840, p. 25.

4-مذكرات الحاج أحمد باي، ترجمة محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ص.41

الضرائب. ونفس القوة كان يمكن تجنيدها في دوائر جميلة ووادي زناتي[1]. وبرغم هذه القوة فإن أحمد باي لم يحسن استغلالها في مواجهة التوسع الفرنسي.

وبفضل هذه القوة المخزنية تمكن النظام العثماني من حماية نفسه من القبائل الجبلية والصحراوية، وكذلك تمكن من مواجهة قوة حمودة باشا حاكم تونس. بل وبفضلها تمكن من الاستيلاء على أراض خصبة وواسعة.

ونتج عن هذه السياسة العثمانية القائمة على مبدإ حماية النظام بقبيلة ضد قبيلة بقاءُ قبائل كثيرة معزولة في مناطق جبلية وصحراوية؛ وهو الأمر الذي كان له انعكاس سلبي على "المقاومة" الجزائرية، وانعكاس إيجابي على التوسع الفرنسي بالمنطقة.

وكانت الأعراش المخزنية تقيم في مناطق حساسة وفي أبراج. كانت من أهمها في بايلك الشرق قبيلة الحشم في برج بوعريريج التي كانت تشرف على الطريق الرابط بين قسنطينة والجزائر العاصمة. وقبيلة أولاد إبراهيم بالكنتور التي كانت تتحكم في الممر الرئيس من قسنطينة إلى عنابة وسطورة (سكيكدة) إلى ناحية القل برفقة زمالة المعاوية. ودائرة الزناتية التي كانت تسيطر على ممر رأس العقبة الذي كان يربط قالمة بكل من عنابة وقسنطينة. وزمالة بني مَراد التي كانت تحرس الطريق الواصل بين قسنطينة وتونس. ومخزن بوصلاح الذي كان يراقب سوق العثمانية الشهير. ودائرة وادي الذهب التي كانت تشرف على العلمة ونواحيها. وكذلك الغرازلة بعين الترك[2]. ومخزن الزمول الذي كان

1- Urbain (I.), "Notice sur l'ancienne province du Titteri ", in **R.A.** 1843, p-p. 400- 403.

2 - Warnier, et, Carette (A.E. Hyppolyte), **Description et division de l'Algérie** Hachette, Paris 1847, p. 49.

يشرف على شرق شمال بسكرة. بالإضافة إلى مخزن الأعشاش المتوطن شمال الأوراس. ومخزن ابن الدايخة الذي كلف بحراسة الجبال الجنوبية للأوراس. وعموما كان نفوذ هذه المخازن ملموسا ومحسوسا في ثلثي مناطق البايلك الشرقي[1].

وبهذا تكون المخزنية قد لعبت دورا رئيسا في استمرار السياسة العثمانية متميزة، لعبت دورا متكاملا مع الدور الذي قام به الكراغلة والأعيان والأعوان في المدينة. وكذلك مع الدور الذي قامت به الحاميات العسكرية في بعض المدن الأخرى. ولم يقتصر دور المخزنية على فرض الأمن وجمع الضرائب فقط بل امتدّ دورهم إلى حماية مدينة قسنطينة والأراضي المحيطة بها من اعتداءات القبائل الجبلية والسهلية ومن هجمات باي تونس حمودة باشا.

إذن فسلطة المدينة كانت بيد الحاج أحمد باي وأعوانه والباش آغا والديوان (الأعيان). بينما سلطة الريف كانت بيد شيوخ القبائل المخزنية الموالين للباي. والسؤال الذي يمكن طرحه هو ما مصير هذا النظام الإداري العثماني في مقاطعة قسنطينة بداية الاحتلال الفرنسي؟

تعدّ السياسة الإدارية الفرنسية من مميزات الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية في الجزائر، إذ تعددت هذه السياسة الإدارية وانحصرت في سياسة مدنية وعسكرية ومزدوجة. خلاف ما كانت عليه خلال العهد العثماني التي كانت سياسة إدارية سلّمية من الباي إلى الشيخ. واتسمت السياسة الفرنسية بصدور قوانين كثيرة عرفت خلالها السلطة الفرنسية التردد حينا والتناقض

---

1 - سعيدوني، ناصر الدين، **دراسات وأبحاث**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ص.271. وكذلك:A.O.M. 10H1

أحيانا أخرى حول أي شكل من النظام الإداري الذي يمكن إقامته، ولكنها قامت بتأسيس لحاكم "قضائية" مدنية وعسكرية ومحاكم إسلامية وأخرى يهودية. بجانب المرافق الأخرى كالمؤسسات التعليمية. ووُظّفت هذه المحاكم كلُها خدمةً للسياسة الإدارية الفرنسية.

لأن من أهم المشاكل التي اعترضت السلطة الفرنسية تمثلت في الإجابة على ما إذا كان الاحتفاظ بالجزائر مفيدا؟ وهل تطبق فيها سياسة مدنية أو عسكرية؟ أو تبقى الجزائر مستقلّة ذاتيا ولكنها خاضعة للسلطة الفرنسية؟ وفي هذه أو تلك هل تسيّر الجزائر بقانون فرنسي أم بقضاء إسلامي أم بقانون خاص متميز؟ واستمرت هذه الأسئلة موضع اهتمام الفرنسيين عسكريين وسياسيين مدنيين ومشرعين قانونيين. ولم يتفق كلهم على تطبيق نظام سياسي واحد موحد،وهو أمر طبيعي أن تكون هذه المشكلة لاختلاف ثقافة الجزائريين من جهة. ولوجود قيادات أوروبية مختلفة أيديولوجيا.

وبعد احتلال السلطة الفرنسية لمعظم مدن الشرق الجزائري أدخلت تغيرات على النظام الإداري السابق. فصار هذا النظام يتكون من خمس هيئات على الأقل[1] وهي: المجلس الحربي، والمجلس الأهلي الخاص، والقائد العسكري الذي هو حاكم الناحية، وقائد المدينة، والخليفة.

وبهذا الإجراء أحدثت السلطة الفرنسية نفوذا واسعا في المدينة وفي الريف. وبداية من عام 1845 شرعت هذه السلطة في إضافة القوانين وتطبيق بعضها من أجل تكريس سياسة الإدماج. إذ بمرسوم 18 أفريل 1845 قسمت

1 – تقرير القيادة الفرنسية، أرشيف وزارة الحربية الفرنسية–فانسان، باريس، **H228** .

الجزائر إلى ثلاث مقاطعات كبرى يرأس كلّ واحدة والٍ (Préfet). وبداية من نوفمبر من نفس السنة منح فرنسيو الجزائر حق التمثيل النيابي في "الجمعية العامة" بباريس.

ولما كانت أطراف قوية في السلطة الفرنسية مصرة منذ البداية على الاحتفاظ بالجزائر فإنها لم تتردد في سنّ سياسة إدارية متميزة أشركت فيها الجزائريين؛ إذ تؤكد المصادر التي بين أيدينا أن السلطة الفرنسية أشركت الأعيان من الجزائريين وكان من بينهم في مدينة قسنطينة حمودة بن سيدي الشيخ ابن محمد الفقون. ثمّ عين نيقريي (Négrier) حاكمُ قسنطينة الشيخَ عمار بالقشي خلفا لحمودة بن محمد الفقون في مارس عام 1841. ثمّ تولّى الإدارة بعده الضابط غاسلان (Ghaslane) بقرار من الحاكم العام يوم 28 أفريل 1848[1]

ومن خلال إطلاعنا على بعض الوثائق المحفوظة في دور الأرشيف في فرنسا تتأكد لنا أن الأعيان الذين تولوا الإدارة في ظلّ الاحتلال كثيرون. ومن هذه الوثائق نقدم ما كتبه دي نفا (De Neveu)[2] الذي حدّد لنا جانبا مهما من هذه السياسة الإدارية وكانت على الوجه الآتي:

* تعيين ابن عيسى خليفة على الساحل أمن الطريق الرابط بين فيليب فيل (سكيكدة) وقسنطينة. ولمنع كل هجوم على المؤسسات الفرنسية.

---

1 - Megnaoua Chérif, **Le Registre du Caïd El Bled de Constantine 1848-1850**, Linotype Braham, Constantine 1929.

2 – يراجع هذا المخطوط وعنوانه: "وضعية إقليم قسنطينة ما بين الفترة 1839 إلى 1842 بقلم الكولونال دي نفا رداً على كتاب لويس بلانكي الذي انتقد السياسة الفرنسية"، أرشيف وزارة الحربية الفرنسية–فانسان، باريس ، **H235**.

* تكليف ابن حملاوي عام 1838 بضمان أمن الطريق الرابط بين قسنطينة وسطيف

وبفعل ما كان لهذين الرجلين من مكانة أيام حكم الحاج أحمد باي تمكنا من السيطرة على قبائل وأسر جزائرية ؛ لأن القبائل بقيت تهابهما.

* تعيين الشيخ المقراني على مجانة نظرا للنفوذ الذي كان يتمتع به.

* تعيين ابن قانة واعتماده في منصب شيخ العرب على منطقة الزاب. وكان ابن قانة يحكم هذه المنطقة في عهد الحاج أحمد باي رغم وجود فرحات بن سعيد والحسن بن عزوز. وتمكن ابن قانة من قتل الأول وإلقاء القبض على الثاني وتسليمه لفرنسا التي نفته إلى جزيرة مارغريت[1].

* تعيين قائد العواسي علي بن با أحمد الذي سبق له وأن عين خليفة على الساحل خلفا لابن عيسى. ثم على فرجيوة خلفا لابن حملاوي.

* تعيين حمودة بن الفقون في منصب شيخ الإسلام في مدينة قسنطينة ليتولي أمر المسلمين نظرا لمكانته ولمكانة عائلته ذات النفوذ الممتد إلى كامل أنحاء الجزائر. يقول دي نفا: وهو (أي حموده بن الفقون): "الذي تخلى عن مواصلة الحرب ضدنا وعمل على توقيف النار يوم دخولنا إلى قسنطينة قصد الحد من إراقة الدماء والحد من مقاومة كانت ستستمر ساعات. وهو الذي أقنع السكان بأن المسيحيين سيحترمون الدين الإسلامي والعادات والتقاليد للسكان

---

1 – لمعرفة شيء عن الحسن بن عزوز يراجع ما كتبناه في: **المجلة التاريخية المغاربية**، بعنوان"وثيقة نادرة عن موقف الحسن بن عزوز من السياسة الفرنسية في الجزائر"، العدد زغوان–تونس2000، ص–ص. 693–706

الجزائريين وقد كتبت خطابات كثيرة في هذا الشأن. وكان لموقفه هذا مردوده وتأثيره على السكان"[1].

وتفطنت السلطة الفرنسية إلى وسائل كثيرة لكسب بها الصفوف الجزائرية وهي اكتساب الشيوخ سواء شيوخ الدين في المدينة أم شيوخ الطرق "الصوفية" وشيوخ القبائل والأسر في الريف. وكانت لهدية البرنوس آثار فاعلة في النفوس منذ العهد العثماني؛ وهو ما عملت به فرنسا حين كلفت حموده بن الفقون بتوزيع البرانيس باسم فرنسا على أهم الشيوخ ذوي النفوذ[2].

1- دي نفا، أرشيف وزارة الحربية الفرنسية-فانسان، باريس، H235

2 – لمزيد من المعلومات عن السياسة الإدارية الفرنسية يراجع كتابنا: **أبحاث في الفكر والتاريخ**، دار الهدى، عين مليلة الجزائر 2003 بداية من صفحة 25.

بحكم العلاقات المستجدة بين الجزائريين والفرنسيين، وبحكم الدافع إلى إقرار سياسة الإدماج وتدجين الجزائريين، والرغبة في المزيد من الهيمنة وظفت فرنسا الترجمة كوسيلة لتحقيق ذلك. وقد وجدت خلال المرحلة الأولى من الاحتلال في بعض الشوام وبعض المصريين والمستشرقين الكفاءات اللازمة للقيام بذلك؛ وتولّى هؤلاء ترجمة المراسلات بين الفرنسيين وكل من الجزائريين والدول العربية، مثلما تولوا وإدارة مكاتب الشؤون العربية وكل ما يتعلق بجيش الاحتلال وما يتعلق بالطباعة والتأليف في الجزائر.

وكانت أسماء كثيرة من المترجمين ومنهم **حنا بن لياس فرعون** الذي يعد أول مدرس للغة العربية في الجزائر؛ ومن الذين تولوا عملية الترجمة من العربية إلى الفرنسية والعكس، خاصة في المراسلات الرسمية التي كانت بين القادة الفرنسيين والشيوخ والحكام[1].

وقد نتج عن دور المترجمين فتح مدارس لتعليم اللغة العربية البسيطة للفرنسيين والجزائريين؛ بتأسيس مدارس عربية وفرنسية. وتأسيس الصحف الاستعمارية باللغة العربية. وتأسيس مكاتب الشؤون العربية. وتشجيع أبناء الجزائريين للذهاب إلى فرنسا لمزاولة دراستهم.

1- معظم المراسلات الموجهة باللغة العربية من القادة موقعة باسم مترجم مثل: "كاتب الأحرف عن إذن سعادة المارشال الترجمان حنا فرعون ". لمزيد من المعلومات يراجع دور المستشرقين في عملية الترجمة في كتابنا: **من تاريخ الجزائر الحديث**، مطبعة دار الهدى بعين مليلة، ط 2، 2004

ونفهم من المعلومات الهامة التي قدمها ماسي[1] أن الاهتمام الفرنسي باللغة الجزائرية بدأ منذ الأيام الأولى من الحملة الفرنسية، حيث رافقت الحملة مجموعة من المترجمين؛ منهم جورج قاروي (Georges Garoué) الذي أصله من سوريا، وكان أول عمل له أنه اتصل بالجزائريين من سيدي فرج وعرفهم بمدنية فرنسا محاولا دفعهم إلى السلام لكن الداي عمل على قتله.

وقام بنفس الدور زميله ليون أياس الذي أصله من مرسيليا حيث خاطب الجزائريين باللغة العربية ودفعهم للاستسلام. وقام لويس دي براسفيتش الذي كلفه دي بورمون رغم كبر سنه بالاتصال بالداي حسين وعرض عليه شروط الاستسلام.

ولم يكتف هؤلاء بدور الوساطة بل انكبوا على وضع قاموسين يتعلقان بلهجة السكان. ووضعا في متناول ضباط الحملة الفرنسية وكان الأول ألّفه بن جامان فانسان بأمر من وزير الحربية. والثاني ألّفه أبراهام دانينوس من مواليد الجزائر عام 1797[2].

وكان جون-شارل زكار المولود بدمشق عام 1789 يعمل بتنسيق مع المستشرق سيلفيستر دي ساسي وبيانشي. وهو الذي كان يترجم أغلب العرائض التي وجهها دي بورمون للجزائريين. وكان يساعده مترجمون آخرون

1-MASSE ,HENRI, "LES ETUDES ARABES , EN ALGERIE (1830-1930)" , IN **R.A.** ANNEE 1933 , P-P. 209-258.

2 - ولم يكن الفرنسيون فقط هم الذين قاموا بدور الترجمة بل كان الجزائريون الذي تخرجوا من المدارس الفرنسية قد ساهموا فيها بشكل كبير؛ من ذلك كان بكير خوجة الذي ألف قاموسا فرنسيا عربيا في 809 صفحة عام 1906. لمزيد من المعلومات يراجع:

« Bakir-Khodja » **Ammar ben Hassein, Dictionnaire pratique français-arabe,** Maurice Boêt, Constantine 1906

منهم أسالان ريش (Asselin Riche) وشرع هؤلاء في جمع المخطوطات والكتب، وفي تأسيس مكتبة في الجزائر العاصمة منذ الشهور الأولى من الاحتلال.

وشرعوا أيضا في تخصيص دروس باللغة الفرنسية للجزائريين ودروس باللغة العربية للإسرائليين، ودروس باللغة العربية لضباط الجيش الفرنسي. وأسند دور تدريس اللغة العربية للسيد جواني فرعون وهو ابن إلياس فرعون الذي أصل أسرته من بعلبك ومن مواليد القاهرة عام 1803 الذي سبق له أن كان مترجما لجيش الحملة الفرنسية على مصر. وكان تلميذا في مدرسة اللغات الشرقية ثم أستاذا للغة الإيطالية ثم أستاذا للغة الفرنسية بالمعهد المصري في باريس عام 1825 فصار مترجم الجيش الإفريقي[1]. ثم عين عام 1832 أستاذ اللغة العربية في الجزائر العاصمة. وتمكن هؤلاء من إحداث منصب كرسي اللغة العربية في الجزائر.

وقد اتسع دور المترجمين فشمل كل بلاد شمال إفريقيا، خاصة لما تعاونوا مع التنصيريين المسيحيين الذين كان هدفهم يتطابق مع هدف كثير من المترجمين والاستيطانيين.

وعلى ذكر المترجمين فقد لعبت هذه الفئة دورا هاما في التنسيق بين الفرنسيين والجزائريين، بل بين الحضارتين العربية –الإسلامية والأوروبية؛ من ذلك أنهم كانوا قد عرفوا كل طرف بثقافة الآخر، ونذكر مثالا في هذا السياق بما قدمه أوغست مارتان (Auguste Martin) حين كتب للجزائريين مؤلفا عن

---

1 – لمعرفة دور المترجمين في الجيش الفرنسي يراجع:

* Charles Féraud, **Les interprètes de l'Armée d'Afrique**, Jourdan, Alger 1876

تاريخ فرنسا السياسي وعن ملوكها بعنوان: **السيرة السنية في أخبار ملوك الدولة الفرانصوية** جاء في 180 صفحة[1]. وكان الهدف من ذلك توصيل رسالة "الحضارة والمدنية الفرنسية" إلى عامة الجزائريين ليقتنعوا ويتقبلوا الاستيطان الأوروبي، وهو الأمر الذي انطلى على بعض الجزائريين حين تقبلوا السياسة الفرنسية، وقام بعضهم فيما بعد بدور المترجم في الإدارة الفرنسية بالجزائر.

---

1 - مطبعة باستيد، الجزائر 1863.

بداية السياسة التجارية الفرنسية في الجزائر

سبق وأن قلنا في أطروحة دكتوراه الدولة[1] إن التجارة في الجزائر العثمانية لم تسمح بظهور برجوازية صناعية تجارية على غرار ما ظهرت في أوروبا بفعل جملة من المعوقات الأكثر تأثيرا، وكان أخطرها المستوى التقني وتحجر الذهنيات التي كانت مشدودة إلى الاجترار، وإلى انحصار "العلم" في ميادين التدين والأدبيات. بجانب السيطرة الأوروبية على المواصلات البحرية. وما وجد من تجارة في الجزائر كان يتم بواسطة طرق مواصلات محدودة وغير مؤمنة ولمواد حرفية تقليدية.

ومن جهة أخرى كان النظام العثماني يشكل حاجزا أمام تطور التجارة المحلية، وذلك بتشجيعه للتجار الأجانب على حساب التجار المحليين الأمر الذي أدى إلى عدم الانسجام بين النشاط التجاري المحلي المحدود والجهاز الحاكم لمواجهة الاحتواء الأجنبي ولتحويل الريع العيني إلى ريع نقدي؛ الأمر الذي ساعد – ولو بشكل محدود – الغزو الأوروبي كي يحقق أهدافه السياسية والتجارية.

هذا وقد أدرك البرجوازي الأوروبي على ما يبدو إمكانية بلاد الجزائر الاقتصادية رغم فقرها، وضعف النظام العثماني فيها لهذا قام أول الأمر بالقضاء على هذا النظام، وهذا ما يفسّر مساعي الأوساط الماركنتيلية وخاصة المارسيلية

1– جامعة منتوري، قسنطينة، معهد العلوم الاجتماعية، يراجع الفصل الأول

للضغط على حكومة باريس لاحتلال الجزائر، والدال على ذلك تمويل الغرفة التجارية المارسيلية والبرجوازية الأوروبية للحملة الفرنسية عام 1830.

تمّ هذا رغم وجود بلدان أخرى أكثر ثراء من الجزائر، ولعلّ هذا الذي دفع عبد الله العروي إلى اعتبار الاستعمار الفرنسي للجزائر نشازا في وقته[1].

كانت التجارة برغم ضعف نشاطها مقارنة ببعض الدول الأخرى كانت تقوم بدور هام في حياة الجزائر العثمانية. وكانت هذه التجارة داخلية وخارجية. فالنشاط التجاري الداخلي كان يربط أولا بين المدن بواسطة الأسواق الأسبوعية. وثانيا وبواسطة القوافل. وكان للصناعات الحرفية دور هام في هذا النشاط التجاري.

والنشاط التجاري الخارجي كان يتم بين الجزائر وكل من تونس والمغرب وأوروبا وأفريقيا، حيث كانت أهم المواد الأساسية المصدرة هي الحبوب. وأهم المواد المستوردة هي العطور والتوابل والأسلحة والأقمشة وغيرها.

وكان للتجار اليهود المتجولين وغير المتجولين دور هام في رواج المنتجات الأوروبية في الجزائر. وبالتالي في سير العلاقات الرسمية بين نظامي الحكم في كل من الجزائر وفرنسا.

وفيما يخص التجار اليهود فالحديث يطول نظرا لدورهم الكبير في هذا المجال، إذ بواسطة ممارستهم للتجارة صاروا وسطاء بين حكام الجزائر والجزائريين. وكذلك بين الجزائر وأوروبا[1].

1– لمزيد من المعلومات ينظر:
-Laroui, Abdallah, **L'histoire du Maghreb**, Maspero, Paris 1976.

وفي ظلّ الاحتلال تضاعف النشاط التجاري لهؤلاء الباعة اليهود، بجانب رواج المنتجات الصناعية التونسية بالشرق الجزائري المدعمة بالعملة التونسية، مثلما كان الرواج للمنتوجات المغربية، وقد ساعد هذا الرواج عدم وجود سياسة نقدية "وطنية" قبل عام 1830 في الجزائر فكل النقود كانت متداولة على حدّ مماثل في البلدان الإسلامية في هذا الوقت.

وبرغم تمكن فرنسا من احتلال الجزائر سياسيا لكنها لم تتمكن من بعث نشاط تجاري واسع، فكانت هذه السياسة الفرنسية موضع نقد من طرف المفكرين وفي مقدمتهم بلانكي الذي وصف التجارة على أنها بقيت خلال سنتي 1841 و 1842 ضعيفة على نفس المنوال الذي كانت عليه سنتي 1839 و 1840. فكان رد السلطة الفرنسية على مثل هذا النقد أن التجارة في الجزائر عرفت نشاطا ملحوظا إذ سمح لقائد بني عباس أن يؤسس فندقا واحدا في عام 1839، ومن غير هذا كانت التجارة تتم بواسطة 150 إلى 200 بغلا كانوا في حركة تنقل دائمة بالمنطقة لضمان تبادل ووصول البضائع[2].

وفيما يخص الحبوب فهي لم تكن كافية من الجزائر لسد حاجة الأوروبيين من جيش ومستوطنين نتيجة المجاعة والحرائق التي عرفتها الجزائر، الأمر الذي جعل الإدارة الفرنسية في الجزائر تعمل على استيرادها من فرنسا.

---

1 – لمعرفة الدور اليهودي في هذه الوساطة يراجع: بيلامي وداد، **النفوذ الاقتصادي والسياسي ليهود الجزائر (1516-1830)** ماجستير ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة 2004

2– للمزيد من المعلومات يراجع:
A.M.G. **H235**, « Etat de la province de Constantine de 1839-1842 ».

ولهذا كانت الجزائر العاصمة الواسطةَ لتمويل الجيش الفرنسي في مقاطعات الجزائر بالحبوب من فرنسا.

مع العلم أن فرنسا كانت تستورد ما يلزمها من الحبوب. مثلما كانت أوروبا والمشرق تتزود بمواد تجارية خلال العهد العثماني. ويمكن تلخيص ما كان يصدر إلى خارج الجزائر بهذا المختصر. إذ كانت 43 مادة تجارية تصدر إلى مرسيليا، وأن أغلب التجار القائمين على هذا هم فرنسيون. في حين أن 45 مادة كانت تصدر إلى ليفورن، وأغلب القائمين بهذه المواد التجارية هم اليهود. في الوقت الذي كانت فيه 18 مادة تجارية تصدر إلى المشرق.

وكانت أهم المواد التجارية المصدرة الصوف والجلود والشمع والعسل والحبوب والزيوت. وكانت أهم الموانئ التجارية كل من عنابة وسطورة وبجاية والجزائر العاصمة ووهران بعد استرجاعها من الإسبان[1]. وكانت أهم الموانئ التي تصلها صادرات الجزائر كل من مرسيليا، وليفورن، والأسكندرية، وأزمير، وتونس.

وبناء على تقرير مطول لوزارة الحربية الفرنسية[2] حول الحركة التجارية على السواحل، وبخاصة في ميناء سطورة خلال شهر مارس لسنة 1839 أي بعد سنة واحدة من احتلالها فقد بلغت البضائع المصدّرة منه 5076 طن علـــى متون 459 سفينة. بينما كانت بضائع الواردات تقدّر بـــ 26.182 طن على متون

1 – لمزيد من المعلومات يراجع أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ص-ص. 309-320

2– التقرير بتاريخ أول ماي 1840. ينظر: **A.M.G., H228**

456 سفينة[1]. وبناء على ما قدمه فيليكس أنطوان من معلومات تكون حركة النشاط التجاري عام 1845 قد تضاعف في أهم الأسواق بمدن الجزائر.

حيث بلغ مجموع المواد المتاجر بها في مدينة قسنطينة فقط على سبيل المثال[2]:

مدينة	قمح/هكل	شعير/هكل	أغنام/رأس	صوف/كغ	جلود بقر	قماش/م
قسنطينة	40.139	31.193	24.284	498.911	22.087	195.577

وكانت مدينة قسنطينة همزة وصل بين كل المدن الممتدة علـى جهاتها الأربع.وبخاصة المدن المتواجدة في الصحراء. هذه المدن كانت من جهة أخـرى مفتوحة على تجارة البارود من عند بني ميزاب، والأسلحة والأحجار الكريمـة من تونس وهو الأمر الذي لم تحبذه فرنسا وبذلت جهدا كبيرا للقضاء على هذا النوع من التجارة.

والملاحظ في هذه الحركة التجارية أن تردد الجزائريين في مدن الشرق على الأسواق كان بعدد كبير مثلا كان في قسنطينة 495.899 فرد وفي سطيف

---

1 – لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية في منطقة سكيكدة**، دار الهدى، قسنطينة 2004، بداية من صفحة 83. **مع العلم أن الأسعار لأهم المواد التجارية في الجزائر من الحيوانات كانت عام 1848:**

– الحصان من 100 إلى 200 فرنك.

– الثور من 80– 100 فرنك

– البقرة من 60 –70فرنك

– العجل 25 فرنك

– الخروف من 7–10 فرنك

2 - Felix (A.), **Constantine centre économique, marché de grains et de tissus**, Camilli et Fourié, Toulouse France, p.55.

118.590[1] وكانت أهم المنتجات التجارية الأخرى في تزايد مستمر إذ تجاوزت الثلاثين نوعا؛ إلى درجة أن بلغت عام 1855 قيمة المشتريات في أسواق مدينة قسنطينة وحدها بمبلغ وقدره 15.727.236 فرنك[2].

ولم يكن الاهتمام التجاري الأوروبي ينحصر في الشمال فقط بل امتدّ أيضا إلى الجنوب؛ حيث كانت الصحراء مبعث إغراء للمغامرين وللتجار، ومن ثمّ صارت الصحراء من دوافع التوسع الفرنسي فيها وهو ما عبر عنه شارل فيرو بما يمكن ترجمته: **إنه باحتلال ورقلة يمكن إقامة إدارة فرنسية قوية أساسها السوق التجارية بهذه المدينة، التي ستكون هامة للأوروبيين والعرب والميزابيين والسود واليهود. لأن في الصحراء ثروة هامة ذات مداخيل معتبرة**[3]. **وقد أكّد دوماس على أهمية التجارة في الجنوب الجزائري بما أمكن ترجمته: تعدّ بسكرة مركزا هاما للتجار العرب الوافدين من بوسعادة وأولاد نايل وتوقرت ووادي سوف ونفطة، مثلما تعدُّ بقية المدن الأخرى وهي**

1- مقارنة بما تردد على أسواق الجزائر العاصمة الذي كان في نفس هذا العام 76.040 فرد. وفي وهران 70.537 فرد. **المرجع نفسه**. الصفحة نفسها.

2- ينظر: Felix (A.) **المرجع نفسه**. ص. 66. من هذه الأنواع: أصناف من الحيوانات، الحبوب، التمر، الفواكه، الزبدة والزيت، العسل، الأملاح، الجلود، الصوف، الخشب، الفحم، التبن، التبغ، الجبس.

3- لمعرفة تفاصيل عن هذه المداخيل ينظر:

* Féraud (Ch.), « Notes historiques sur la province de Constantine, les beni-djeleb, sultans de Touggourt », **in R.A.** no 31, 1887, p.29.

سبدو وسعيدة وفرندة وتبسة وغيرها أهمّ المراكز التجارية الداخلية، ولهذا فالضرورة تقتضي توسيع احتلالنا من أجل تطوير تجارتنا إلى داخل إفريقيا[1].

وكانت الأغواط من المناطق التي تزدهر بها التجارة، إذ كان يتردد على السوقين الكبيرين بها كل من الربايع وعمور وأولاد خليف وأولاد شعيب، وأولاد مخاليف، وأولاد نايل، وأولاد رحمان، والغرازلية وأولاد مختار وأولاد سيدي عطا الله وأولاد حال سعد والشعانبة. وقد ساعدت وفرة المياه وموقع الأغواط المتوسط لجهات مفتوحة لكل الاتجاهات على ازدهار تجارة البارود من عند بني ميزاب، والأسلحة والأحجار الكريمة من تونس والصوف من بوسعادة، والحبوب من التل. وبالمقابل كان إنتاج الأغواط كبيرا من ملابس صوفية وحدادة وصباغة وفواكه خاصة التمور منها[2].

وكان الساسة الفرنسيون يرون في استعمار إفريقيا مسألة سياسية ومستقبلا تجاريا هاما؛ لأن الجزائر في حوض البحر المتوسط تعدّ بالنسبة لفرنسا عامل قوة وموازاة يماثل قوة إنجلترا في مضيق جبل طارق ومالطا. ففي نظر الساسة الفرنسيين أنه باستعمار أفريقيا تسهل عملية السيطرة على بلاد كثيرة. وستكون فرنسا المستفيد الأكبر من التجارة العالمية إذ يمكن التنبؤ بل القول بكل تأكيد – حسب قناعتهم – إن تجارة الهند التي توقفت في حوض البحر المتوسط منذ ثلاثة قرون إلى المحيط سوف تعود إلى البحر المتوسط. وبهذا تكون الجزائر

1- Daumas, **Le Sahara Algérien, études géographiques, statistiques et Historiques du sud**, Paris 1845. ; p-p.7-9.

2–كانت منتجات تجارية كثيرة تصدّر من الجنوب الجزائري يراجع: A.M.G. **H235**

بالنسبة إلى فرنسا القوة التي تضمن بها مستقبلها أمام المنافسة الدولية. مثلما تكون عامل بديل عن التجارة مع دول أمريكا اللاتينية[1].

---

1 لمزيد من المعلومات عن السياسة الفرنسية التجارية يراجع كل من:

* Chambre de Commerce de Constantine, **Comte rendu**, Exercice 1857-1858, Constantine 1858
* Victor Démontes ; **L'Algérie industrielle et commerçante**, La rose, Paris 1930
* Blondel Léon, **Aperçu sur la situation politique commerciale et industrielle des possessions françaises dans le Nord de l'Afrique**, Imprimerie Royale Paris 1836

لم يهتم العامة والسياسيون في الجزائر خلال عهد النظام العثماني بالعلوم التجريبية والطبيعية. ولهذا لم يكن طب بالشكل الذي كان سائدا فيأوروبا إذ كان العامة من الجزائريين يمارسون التداوي بطرق تقليدية وبالأعشاب وبالطب النبوي، معتمدين على بعض الكتب مثل كتاب الرحمة في الطب والحكمة. في حين كان رجال الحكم من بايات ودايات يستعينون بأطباء أجانب من الأسرى الأوروبيين.

ولعل هذا الذي دفع كثيرا من العلماء إلى توجيه أكثر من نداء للاهتمام بهذا القطاع الحساس، ونكر منهم حمدان خوجة الذي ألف في هذا الباب كتابه المشهور "إتحاف المنصفين والأدباء عن الاحتراس من الوباء" وأهده للسلطان العثماني كي يطبق الحجر الصحي أسوة بما كان سائدا في أوروبا[1].

ويؤكد شيمبر ما قاله بفايفر قبله من أن الطب يكاد يكون غير معروف في الجزائر، فلا يوجد في المدينة على كبرها سوى طبيب عربي واحد وهو صيدلي في الوقت نفسه. ويصف شمبر هذا الطبيب بالجهل والكسل، فعلى الرغم من أنه درس الطب في مدينة "ليفورنو" لمدة لم يستطع تحديدها، فإنه لم يكن

---

1 – لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827 – 1840)**، دار البعث، قسنطينة، 1987

يعرف كلمة إيطالية واحدة ولا إسبانية، بل إنه لم يكن يعرف حتى اللغة الفرنجية التي يتكلمها كل إنسان في الجزائر[1]

ونتج عن عدم الاهتمام هذا تفشي أمراض كثيرة مثل الجدري، والكوليرة والإسهال وفقر الدم والحمى والتهاب المفاصل والكبد والمسالك البولية وأمراض العيون وأمراض النساء والجنون.

وقد لقي الطب إهتماما كبيرا عهد الأمير عبد القادر وخلال الاحتلال الأوروبي للجزائر. إذ كان عهد الأمير عبد القادر الطب رسميا مراقبا بعد أن أسند أمره إلى طبيبين يلقبان باش جراح أي كبير الجراحين.

بينما في عهد الاحتلال الفرنسي اتسع نطاق الطب واستخدم وسيلة للتوسع والاستيطان. لأن السياسة الفرنسية التوسعية في الجزائر اعتمدت وسائل كثيرة كان أهمها: التوسع العسكري. والتوسع المدني. والتوسع العلمي والطبي والديني.

إذ رافق الحملة الفرنسية أطباء أسسوا مستشفيات . وأجروا أبحاثا كثيرة في هذا الميدان فظهرت المؤلفات المتخصصة وفتحت المدارس المتخصصة.

1- الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1955)، ترجمة أبي العيد دود، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980

إذ أن كلوزال وهو من رجال الاحتلال قد قرّب إليه العلماء من مختلف التخصصات ومنهم بيربريقر (Berbrugger) وكلفه بتأسيس مكتبة جزائرية لجمع المخطوطات[1].

امتد ذلك الاهتمام العلمي إلى تأسيس المستشفيات بداية من عام 1832. مثلما أسست مركز استشفاء في بجاية عام 1834 وفي قالمة عام 1837 وفي قسنطينة فتحت أول بيت كعيادة للفحص يوم 1 نوفمبر 1839. وما جاءت سنة 1845 حتى بلغ عدد المستشفيات في الجزائر كلها 38 مستشفى[2].

وفي 21 جانفي سنة 1853 أسس المارشال الوزير سانت آرنو الفرع الطبي الخاص بالمستوطنين. لأن الرعاية الصحية لم تكن بشكل رسمي وواسع؛ إذ أنه خلال عام 1835 لم يتعد عدد الأطباء في الجزائر 80 طبيبا[3].

وتأسست جريدة طبية عام 1856 باسم (La Gazette médicale) وهي من الجرائد العلمية المتخصصة المتميزة من بين الصحف التي

1-سيف الإسلام، الزبير، **تاريخ الصحافة في الجزائر**، ج 2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص.41.

2 - Turin (Y.), **Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale**, E.N.A.L. Algérie 1983 .p.13.

3 - Raymond Féry , « Les médecins de colonisations » , in. **Historia** , no 486 , Paris 1987 , p-p. p-p.106-114.

ظهرت في الجزائر. بجانب التآليف في ميدان الطب حول الأمراض المعدية.

وتأسست مدرسة للطب عام 1857 في الجزائر العاصمة. وكان إقبال الجزائريين قليلا على تعلم الطب بالمقارنة بالفرنسيين والأوروبيين. ومع ذلك تمكن بعض الجزائريين من مناقشة أطروحة الدكتوراه في الطب مثلما حصل مع محمد بالعربي عام 1884. وقد تتلمذ 33 جزائريا من عام 1857 إلى عام 1905 في هذه المدرسة . وضمت هذه المدرسة 535 طالبا عام 1930 كان منهم 13 جزائريا فقط[1].

1 – أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 7، دار الغرب الإسلامي، بيروت ص–ص. 276–277

ثورة ازغاية عام 1864

من خلال وثائق نادرة[1]

سبق وأن تحدثنا عن هذه الثورة في كتابنا **جوانب من السياسة الفرنسية والمقاومة الوطنية في الشرق الجزائري**[2]. لكن بعض المستجدات العلمية ظهرت دفعتني للكتابة من جديد، ونأمل أن تدرج في الطبعة الثانية، إن شاء الله، وتتمثل هذه المستجدات في بعض الوثائق النادرة، وعليه سيكون عرض الموضوع من خلال النقاط الآتية:

1 –وضع الجزائر السياسي العام سنة 1864

2– الهجوم على برج ازغاية

3– القيمة التاريخية لهذه الثورة

4–وثائق مصدرية

1 –وضع الجزائر السياسي العام سنة 1864

تعد سنة 1864 نقطة تحول واستمرار للثورات الجزائرية عبر أنحاء البلاد. مثلما تعتبر بداية لمرحلة جديدة للسياسة الفرنسية في الجزائر، خاصة بعد زيارة أمبراطور فرنسا نابليون الثالث للجزائر عام 1860، وصدور التشريعات الملكية

1– نشر هذا العمل في **مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية**، العدد 17 نوفمبر 2004، ص–ص. 211–227

2– طبع بدار البعث، قسنطينة 1984 ونأمل أن نعيد طبعه قريبا إن شاء الله

رجال التيار السان سيمون[1]ي. وقد لقيت هذه التشريعات معارضة كبيرة من المعمرين في الجزائر، لا لشيء إلا أنها خدمت بشكل يسير المصالح الجزائرية.

فيما يتعلق بالثورات الجزائرية ضد الاستعمار الاستيطاني نسجل ثورة أولاد سيدي الشيخ في فيفري عام 1864. وثورة الغرب الجزائري في نفس التاريخ[2].

وعلى هذا الأساس تعتبر ثورة ازغاية امتدادا للثورات السابقة عبر أنحاء البلاد. وبداية لثورات لاحقة مثل ثورة الحاج المقراني عام 1871. والسؤال الذي يمكن طرحه هو كيف قامت هذه الثورة؟ ولماذا ضد برج زغاية؟ ومن خطط لها وشارك فيها؟

تضافرت عوامل كثيرة دفعت سكان المنطقة إلى القيام بهذا الهجوم، ومن هذه العوامل إجحاف السلطة الفرنسية المتمثلة في سلوكيات قوتها العسكرية وفي بعض "المتعاملين" معها، وفي المكاتب العربية، الذين عملوا على إثارة النعرات والشقاق بين أفراد الأسرة الواحدة، وبين شيوخ القبائل، ومقدمي الطرق الصوفية. واستفحال نفوذ رجال الدين، إذ أنه بلغ عدد المنصرين عام 1862 في منطقة قسنطينة 73 قسا من مجموع 211 قس. و26 من الآباء البيض من مجموع 306. ومن الأخوات 234 من مجموع 763 كلها[3]. بجانب فرض الضرائب على الأسر الموسعة، وعلى الفلاحين بهذه المنطقة. حيث إن إحصاء سنة 1863 يوضح أن سكان الساحل في دائرة فرجيوة دفعت خلال هذه السنة

1- لمعرفة شيء عن دور هذا التيار في الجزائر يراجع كتابنا: **من تاريخ الجزائر الحديث**، ط2، دار الهدى، الجزائر 2004

2 - Annie Rey Goldzeiguer : **Le Royaume Arabe**, SNED, Alger 1977, p. 286

3 - Annie Rey Goldzeiguer, p. 95

إلى الخزينة الفرنسية حوالي 75000 فرنك كضريبة وحوالي 40600 فرنك زكاة. بجانب أشياء أخرى[1].

بجانب هذا كانت مصادرة الأراضي ومنحها للأوروبيين والمستثمرين الذين ازداد ربحهم خاصة بعد عام 1852، إذ بلغت الفوائد السنوية 113210 فرنك عام 1852 وارتفعت عام 1861 إلى 593451 فرنك[2].

بالإضافة إلى ما طبقته السلطة الفرنسية من سياسة إدارية عزلت بموجبها دور الشيوخ الجزائريين في تطوير بلادهم. كل هذه العوامل وغيرها دفعت سكان المنطقة إلى إعلان الثورة ضد الفرنسيين والمعمرين وأعوانهم.

وكان النظام الإداري في الجزائر خلال مرحلة الاستيطان الأوروبي يتكون من الحاكم العام الفرنسي المقيم دائما في الجزائر العاصمة. والذي كان يسير الإدار بشكل يكاد يكون مستقلا عن باريس. ويتكون أيضا من قادة النواحي، أو والولاة في كل من الشرق والغرب، وهم فرنسيون، بمساعدة المكاتب العربية[3] المتواجدة في العمالات الثلاث. وكذلك المكاتب العربية المتواجدة في الدوائر.

وبجانب هذه المكاتب العربية عينت السلطة الفرنسية لإدارة البلاد خلفاء من الشيوخ الجزائريين في العمالات الثلاث وفي الجنوب الجزائري. وعينت مساعدين لهؤلاء الخلفاء من الجزائريين يسمون في الشرق الجزائري بالقادة. بينما

1- رسالة خليفة بابور إلى رجال السلطة الفرنسية في تاريخ 1864/5/3 أكس أون بروفنس **2 H27**

2 - Annie Rey Goldzeiguer, p. 109

3 – يراجع موضوع اعتماد المكاتب العربية في المقاطعات في هذا الكتاب بداية من صفحة 115

يسمون في كل من وسط وغرب البلاد بالقادة والباشوات والآغوات وهم من الجزائريين.

بحيث أصبح النظام الإداري الفرنسي في الجزائر يتشكل تصاعديا من شيخ القبيلة إلى الحاكم العام. وهو ما نلاحظه في المراسلات الكثيرة مثلما هو مبين في ملاحق هذا الموضوع مثلا (خليفة فرجيوة، قائد زواغة) وبذلك سهل على السلطة الفرنسية التحكم في مناطق كثيرة. وفي جمع الضرائب من السكان الأصليين، خاصة من ناحية فرجيوة وميلة وازغاية. وفي القضاء السياسي على الثورات التي لم تتوقف. وفي إحداث وتأسيس مدن فلاحية إسكانها بهجرات مدنية أوروبية.

والملاحظ عن السياسة الإدارية الفرنسية كانت بوجهين الأولى خاصة بالجزائريين. والثانية خاصة بالأوروبيين.

يتبين من هذا أن الثقل الكبير كان تتحمله القبيلة. وأن الواسطة بين هذه القبيلة والإدارة الفرنسية هم القادة والخلفاء والمكاتب العربية.

2- الهجوم على برج ازغاية

قامت ثورات كثيرة في قطاع الشرق منها ثورة سي وغدود سنة 1842. وثورة عافر يدر ضد الفرنسيين سنة 1859، وكذلك زواغة وأولاد سيدي الشيخ وغيرهم، وبرغم أن حدث الهجوم كان محليا وخلال يوم واحد ولكنه من حيث الأهداف فهو مرتبط بما كان يجري على مستوى الوطن.

تقول الباحثة غولزيغر بما يمكن ترجمته: هاجمت الجموع برج ازغاية في مارس 1864، بشكل عفوي، لا يتعدى هذا الحدث بكونه تصفية حسابات شخصية[1].

المهم أن لثورة بدأت على شكل هجوم مسلح قام به سكان المنطقة على "برج" ازغاية الواقع شمال غرب ميلة، والتابع إداريا إلى دائرة فرجيوة بعمالة قسنطينة، والذي كان يمثل قوة الفرنسيين في هذه المنطقة.

وكيفما كان الحال فقد وجهت الاتهامات آنذاك إلى الشيخ بوعكاز وأولاد عزالدين، على أساس هم الذين قاموا بالثورة.

وذكرت غولزغير أن مقدم الطريقة الرحمانية وهو الشيخ سي أحمد بن مولاي محمد نزل من الجبال على رأس 600 من الأنصار إلى السوق. ودعا إلى الجهاد. وفي هذا الوقت جاء المريدون مبعوثين من تونس وطرابلس والصحراء (أي أتباع الطريقة القادرية والدرقاوية والسنوسية) لنصرة هذه الثورة[2]. بجانب الثورات الأخرى عبر مختلف البلاد. وقد فشلت هذه الثورات فشلا عسكريا،

---

1 - « Les masses attaquent le Bordj de Zeraia, en mars 1864, dans une sorte de levé spontanée, incapable de dépasser le simple règlement de comptes » , Annie Rey Goldzeiguer : **Le Royaume Arabe**, p-p. 289-290

2 - Annie Rey Goldzeiguer : **Le Royaume Arabe**, p. 292

الأمر الذي جعل فرنسا تفرض ضرائب ثقيلة بلغت 638000 فرنك عقابا لهؤلاء الثائرين[1].

ويفهم من تقارير السلطة الفرنسية وأعوانها أن الفلاح الجزائري كان يدفع على الجابدة الواحدة (زويجة)[2] ثلاثة وخمسون فرنك ونصف فرنك وصووردين. وكانت بقية المناطق بزواغة وفرجيوة تدفع بنفس القوة[3].

وتفهم من تقارير أخرى أن مناطق أخرى قد دفعت بنفس الصورة إلى الخزينة الفرنسية منها التقرير الذي قدمه أحمد بن الدراجي بن عاشور خليفة على البابور في تاريخ 3 ماي 1864، الذي يوضح فيه أن مجموع ما دفعه سكان هذه المنطقة هو 75 ألف فرنك حكرا وعشرا بجانب الزكاة التي قدرت ب40 ألف فرنك[4].

مما تقدم يتضح أن الجزائري وبخاصة الفلاح منه كان محل امتصاص دائم من طرف السلطة الفرنبسية، الأمر الذي حدا به إلى الثورة دفاعا على حرمة الدين وعزة النفس وصيانة الأرض حيث ثار سكان فرجيوة مثلا وبالخصوص في زغاية.

ويفهم من الوثائق التي بين أيدينا والتي سننشر بعضها في نهاية هذا الموضوع، أن الإعداد لهذه الثورة كان واسعا. إذ شاركت أطراف كثيرة ومن جهات مختلفة. ونذكر منها بعض الأسماء مثل ابن مولاي محمد وأخوه الحسين،

---

1 - Annie Rey Goldzeiguer : **Le Royaume Arabe**, p. 308

2 – رسالة خليفة فرجيوة إلى رجال السلطة الفرنسية في تاريخ 1864/5/3 أكس أون بروفنس **2 H 27**

3– لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا **جوانب من السياسة الفرنسية**. ص.78.

4– رسالة خليفة فرجيوة، في تاريخ 24 أفريل 1864 أرشيف أكس أون–بروفنس **2H 27**.

وعمار بن الجودى الميلي والحاج بن عز الدين قائد بني يدر وبونعاس قائد أولاد كباب، والشيخ بوعكاز بن عز الدين وخديمه، وأولاد بن عز الدين المتواجدين بتونس، وسي الحواس مقدم الزاوية. أما المناطق المشاركة في كثيرة منها زغاية، وأولاد عسكر، وبني يدر، وميلة، وبني خطاب، وبني فتح، والميلية، وأولاد حاية...

اتفقت هذه الأطراف على ضرورة محاربة التواجد الفرنسي بإيعاز من مقدم الطريقة الرحمانية وهو ابن مولاي محمد، ويفهم هذا من رسالة حم بن علي قائد زواغة والتي ذكر فيها: "والذي نخبرك به بأنه لما حضرنا بوفاس العسكرتني المسجون هنا والحاضر في الدعوى وبحثته على سبب القضية كما وقعت، وأنه قال سببها ابن مولاي محمد[1].

وسبق لابن مولاي محمد أن تجول في مناطق كثيرة يحرض الأعراش ووجهاء القوم على القيام بهذا الهجوم، يتأكد هذا من أحد التقارير لأحد المتعاملين مع السلطة الفرنسية واسمه مصطفى بن سي حمودة شيخ المدرسة بميلة، حيث قال:"سيدي نخبرك إن شاء الله أن مولاي محمد أتى إلى ميلة يوم 11 مارس يوم الجمعة... وكثرت جلوسه في الزاوية متاع حنصالة والزاوية متاع سي الحواس مقدم بن عبد الرحمن مع المقدم والأخوان..."[2].

ويفهم من رسالة أخرى لحم بن علي قائد زواغة أن الأعراش كانت متحدة مع سكان زواغة، وأن الهجوم على ازغاية كان بداية لتوسع المقاومة إلى نواحي أخرى إذ قال: "إن القبائل قد هجموا على برج ... فلما استخبرت عن

1- رسالة حم في تاريخ 20 مارس 1864، أكس أون بروفنس **2 H 27**

2- رسالة مصطفى إلى حم قائد زواغة في تاريخ 23 مارس 1864، أكس **2 H 27**

ذلك فوجدت القبائل كلهم متفقين ومعهم ناس زواغة، واتفقوا كلهم على ذلك، وذكروا أنهم يريدون أن يقدموا إلى القائد بن امنيع ويغزوا عليه، ومن هناك يقدموا إلى الميلية"[1].

ويفهم من بعض الوثائق أن لأولاد ابن عز الدين المتواجدين بتونس دورا هاما في هذه الأحداث المتعلقة بالثورة[2].

وقال في موضع آخر: "وكما أن بن مولاي محمد تكلم مع كل واحد وسمع منه بوفاس المذكور قال لهم أن الشيخ بوعكاز وعدني بإعانة البارود والرصاص، وأن بولخراص بن عز الدين وأخيه قايد بني يدر إذا غزينا على البرج فأولاد بن عز الدين بفزعوا معنا والحاج بوجمعة (؟) وهو بوعكاز ووعدني عاهدني بدفع البارود والرصاص وهو يقيم الأعراش عليهم بالقيام لبرج ازغاية هذا الذي تكلم به بوفاس"[3].

وعن قضية الذخيرة الحربية فالوثائق تؤكد أن كميات هائلة كانت تتوفر في هذه المنطقة، من ذلك أن قائد فرجيوة أحمد خوجة بن عاشور أجرى إحصاء بناء على طلب رجال السلطة الفرنسية، وتأكد للسلطة الفرنسية أن قائمة عريضة من الأسماء كانت تملك كميات هائلة من الأسلحة والذخيرة المصنوعة في الجزائر والمستوردة من المشرق.

ويتأكد وجود بعض الكميات من خلال رسالة أحمد خوجة خليفة في تاريخ 27 أفريل 1864 فعند الشيخ سي السعيد بن الفاسي سبعة أرطال بارود

1- الرسالة إلى والده في تاريخ 18 مارس 1864

2- الرسالة إلى والده في تاريخ 18 مارس 1864

3- الرسالة إلى والده في تاريخ 18 مارس 1864

وأربعة مكاحل (بنادق)، وخليل بن الفاسي1 رطل بارود و40 حجرة و191 رصاصة، محمد بن مناح خمس مكاحل، سي الطاهر بن الساحلي ثلاث مكاحل، وللشيخ بوعكاز عدد من المكاحل والمسدسات والسكاكين جاء بها من مكة[1].

وقد تجمعت أعراش كثيرة يوم الخميس 17 مارس 1864 حيث أقاموا زردة بركة وتبركا، وأثناءها حددوا ساعة الهجوم، إذ يقول حم في نفس الرسالة: "وبولخراص المذكور جعل زردة يوم الخميس السابع عشر من شهر التاريخ واجتمعت عنده الناس، وصباح يوم الجمعة غزوا أصحاب الفساد على البرج وأرسل إلى عبود بورنان ذهب إليه يوم الذي جعل فيه الزردة".

ومما تقدم يتضح وأن الهجوم اتخذ من الزاوية رباطا، ويوم الجمعة تبركا. وقد خطط له مسبقا، وأن الهدف من هذا الهجوم بل من هذه الثورة هو القضاء التام على الوجود الفرنسي والموالين له وقد اختير برج ازغاية لأنه كان يمثل في نظر السكان موطن القوة الفرنسية بهذه الناحية.

وقد تولدت نتائج كثيرة عن هذا الهجوم، وعلى مستويات متعددة، حيث أثارت ردود فعل قوية، نذكر موقف السلطة الفرنسي، التي تمكنت القضاء على نفوذ شيوخ المنطقة ومنهم الشيخ بوعكاز وأولاد عزالدين وشيخ كل من بني رمية وبني فتح وبني صالح وبني علي[2].

أرسلت السلطة الفرنسية إلى جميع الجهات، وخاصة إلى الموالين لها لقاء القبض على كل مشارك في هذا الهجوم، القيام بإحصاء لعدد الأسلحة

---

1 –رسالة أحمد خوجة في تاريخ 27 أبريل 1864، أكس **2 H 27**

2– ينظر Rey Golodzeigue المرجع السابق ص. 292

والكميات من الذخيرة، ولمعرفة أصحابها، وتشديد الرقابة، مع الزيادة في فرض الضرائب وتنويعها. وأصدرت السلطة الفرنسية قوانين لتنظيم أمورها في الجزائر، من تلك القوانين المتعلقة بنظـام الأرض في ديسـمبر 1864، والـذي حـدد الإمبراطور بمقتضاه أسعار البيع، وقد دخل حيز التطبيق منذ سنة 1866.

استفحل الرأسمال الأجنبي بمنحه أراضي إضافية افتكت مـن جزائـرين ثائرين، إذ حصلت الشركة الجزائرية العامة سنة 1865 على مساحة 89500هـ، بمقاطعة قسنطينة.

من النتائج أيضا أن ضمت كل من زواغة وفرجيوة إلى سـيادة الحكـم العسكري المباشر، والقي القبض على كثير من الشيوخ منهم مولاي محمد مقدم الإخوان وأخيه الحسين، وقائد بني يدر الحاج بن عز الـدين، وأفـراد أسـرة بوعكاز.

وحسبما تقول بعض المصادر إن بوعكاز نفي إلى فرنسا (بايون) في أوت 1864[1] واتهمت السلطة الفرنسية من جهة أخرى أسرة المقراني على أنها كانت وراء هذا الحدث برفقة أسرة بن عز الدين.

ومن نتائج هذا أن اتسعت الثورة لتمتد إلى جهات أخرى من الـوطن، ففي هذه الناحية ثار أولاد بني عز الـدين في جويليـة– أوت 1864، وأولاد بوعكاز سبتمبر –نوفمبر 1864 بجانب الثورة[2]. وأن الخسائر كانت مادية إذ أن السلطة الفرنسية قدرتها بوالي 300 ألف فرنك. ويفهم من التقارير الفرنسية أن

1 –ينظر Rey Golodzeiguer، المرجع السابق، ص 316

2– قال حم بن علي: قد هجموا على البرج وغزوا عليه وكسروا أبوابه وكسروا جميع ما فيه واخذوا جميع القش الذي داخله وحرقوا الدار.

حملات تمشيط واسعة قامت ضد سكان المنطقة قدرت قوتها ب 20 ألف محارب، حيث القي القبض على الميئات من الرجال والنساء والأولاد بجانب ما حرق من أراضي، والاستيلاء على حوالي 500 رأس بقر و4000 رأس غنم و9200 رأس عتر و400 حصان.

وقد أرجع بعض الدارسين الأوروبيين ومنهم الباحثة غولزغر في كتابها (المملكة العربية) سبب هذه الثورة إلى دافع هو الحفاظ على الأرض، وتصفية حسابات شخصية. هذا صحيح إلى حد، لكن تحرك الجزائريين كان أيضا بدافع المقومات الأساسية لشخصيتهم العربية الإسلامية، إذ كانت الثورات موجهة ضد"الكافر".

3- القيمة التاريخية لهذه الثورة

تكون هذه الثورة ذات قيمة تاريخية لأنها عبرت عن رفض السلطة الفرنسية، ونفوذ كل من والاها من الجزائريين. وتكون أيضا قد أشركت المنطقة في الثورات الأخرى التي اندلعت عبر أنحاء الوطن. لأنه برغم أن الحدث يبدو محليا وخلال يوم واحد ولكنه من حيث الأهداف فهو مرتبط بما كان يجري على مستوى الوطن.

وتتمثل القيمة التاريخية أيضا فيما تركته هذه الثورة من مادة خبرية دونها وجزائريون وغير جزائرين.

4–وثائق مصدرية

لدينا وثائق كثيرة تبين سير هذه الثورة ولنا أن نقدم منها أربع وثائق هي على الشكل الآتي:

SUBDIVISION DE CONSTANTINE

Cercle de Constantine

KALIFAT DE FERDJIOUA

عمالة قسنطينة

خليفة فرجيوة

في شهر [illegible] سنة ١٨٦٤

الحمد لله وحده

الى حضرة المعظم الارفع الهمام الانبه

العارف المحترم الاسمح سعادة السيد [illegible] مصطفى

[illegible] عليك السلام التام على الابد والدوام [illegible]

خاصة من حضرتك العاليه فان كنت سيدي بخير فالحمد لله على ذلك

وكاتبا سيدي بلغني جوابا من حضرتكم العاليه من عند سعادة

السيد الجنرال [illegible] وخبرتني فيه بالشيخ بوعكاز لما

كانوا اهل [illegible] به حكم عليه سعادة السيد [illegible]

[illegible] حاج [illegible] الشيخ بوعكاز

لقسنطينة نعم سيدي كل ما امرتني به [illegible]

امرتني ان [illegible] وتكون [illegible]

[illegible]

[illegible] على ما [illegible]

[illegible] نعم سيدي ان خدمتي كانت [illegible]

منسوبة على الشيخ بوعكاز وان كان [illegible] اليكم

والان سيدي [illegible] خدمتي [illegible] اليكم

[illegible] على ذلك [illegible] من سيادتك

[illegible] العاليه ان تكون [illegible] باسم [illegible]

عند سعادة السيد الجنرال الحاكم الكبير [illegible] لم تبقى

خدمتي منسوبة على الغير باسم الخليفة [illegible]

من سيادتك العاليه [illegible] خبر نخبرك به

ولا [illegible] احمد بن [illegible] والسلام من [illegible]

[illegible] احمد [illegible] بن عاشور خليفة فرجيوة [illegible]

في شهر 12 أبريل 1864

الحمد لله وحده

أسعد الله حظرة المعظم الأرفع الهمام الأنفع الفارس المحترم الأشجع سعادة السيد الكمانده مصطفى بالمه أمن الله عليك السلام التام على الأبد والدوام يعمك ويعم خلافة من حظرتك العالية فإن كنت سيدي بخير فالحمد لله على ذالك وثانيا سيدي بلغني جوابا من حظرتكم الغالية من عند سعادة السيد الجنرال ديزفوا وخبرني فيه بالشيخ بوعكاز لما كانوا أهل الفساد دايرين به حكم عليه سعادة السيد المرشال بالسجن وأمرني أن نبعث حاج المكي وأهل الشيخ بوعكاز لقسنطينة نعم سيدي كل ما امرني به نقضيه فورا وثالثا الأعراش التي تحت يدي وأنا سيدي منذ دخلت السربيس نخدم بالكد والاجتهاد ونشاوركم على ما يقع قليلا أو كثير فما بالك الآن نعم سيدي أن خدمتي كانت سابقا منسوبة على الشيخ بوعكاز وإن كان استنادي أنا إليكم والآن سيدي حين صارت خدمتي واستنادي كلاهما إليكم فإنا حمدت الله وشكرته على ذالك ونطلب من سيادتك الزاكية العالية أن تكون لي واسطه باسم القيادة عند سعادة السيد الجنرال الحاكم الكبير بحيث لم تبقى خدمتي منسوبة على الغير باسم الخليفة وهاذا ما نطلب من سيادتك العالية ولاكن مهمى يمرنا في خبر نخبرك به ولا يأتي به إلا كاتبي سي احمد بن العياضي والسلام من ابنك وخديمك سي احمد خوجة بن عاشور خليفة فرجيوة والسلام

[illegible] DE CONSTANTINE

KALIFA DU FERDJIOUA

عمالة قسنطينة

خليفة فرجيوة

في شهر [illegible] ابريل — عام ١٨٦٤

الحمد لله وحده

الى [illegible] المعظم الارفع الهمام الانفع سعادة السيد
الجنرال [illegible] بالمحلة [illegible] عليك السلام الاتم الكامل الاعم وبعد
سيدي [illegible] حوايج الاعراش [illegible] رجعنا مع سعادة السيد
الجنرال نعم سيدي [illegible] ولا [illegible] خدمة الدولة وتراتيب
سيدي [illegible] الساعة الثانية [illegible] من الليل للاماكن المتهومين
بها [illegible] الشيخ بوعكاز من بارود وغيره فوجدنا في دار [illegible] بن
العابدي سبعة ارطال بارود موضوعين في [illegible] ومكحلة عمارة كاملة
غير الثلاثة الموضوعين في الجريدة ووجدنا في دار خليل بن العابدي
ارطال بارود [illegible] وربعين حجرة من حجار المكاحل وماية واحدى
وتسعين حبة رصاص [illegible] ووجدنا في دار [illegible] وماية
تسع حبات رصاص ووجدنا في دار [illegible] خمسة مكاحل
وقال لي [illegible] للشيخ بوعكاز وفي دار الحاج [illegible] ووجدنا
[illegible] مكحلة عمارة كاملة [illegible] حبة [illegible] ووجدنا في دار
الشيخ [illegible] بن الصالحي ثلاثة مكاحل وقال لي [illegible]
[illegible] الحاج [illegible] بن عبد العظيم [illegible] في دار [illegible]
[illegible] الثلاثة [illegible] واما السلاحات [illegible] الشيخ
بوعكاز من مكاحل [illegible] الموضوعة عند الناس [illegible]
[illegible] في الجريدة كل واحد باسمه [illegible]
[illegible] السلاحات عند الناس [illegible] سعادة السيد الجنرال
والسلاحات التي [illegible] الشيخ بوعكاز من [illegible]
[illegible] موضوع في الجريدة [illegible]
[illegible] من [illegible] كل واحد باسمه [illegible]
[illegible] والموضع الذي موضوعين فيه وارسلنا لك الجريدة [illegible]
[illegible] لسعادة السيد الجنرال [illegible] والسلام
من السيد احمد [illegible] بن [illegible] خليفة فرجيوة [illegible]

اربع فرد [illegible] مع [illegible] الثلاثة والرابعة [illegible]

في شهر 27 أبريل 1864

الحـــــــمد لله وحـــــــده

أسعد الله ذات المعظم الأرجع الهمام الأنفع سعادة السيد الكمانده مصطفى بالمه أمنه الله عليك السلام الأتم الشامل والأعم وبعد سيدي بلغني جوابـــك الأعـــز وقلت لي فيه صفرت لي وجهي مع سعادة السيد الجنرال نعم سيدي لم تكن لي غفلة ولا تفريط في خدمة الدولة وتراني سيدي مشيت في الساعة الثانية عشـــر من الليل للاماكين المتهومين بأماين الشيخ بوعكاز من بارود وغيره فوجـــدت في دار سي الساعيد بن الفاسي سبعة أرطـــال بـــارود موضـــوعين في برمـــة وموكحلة عمارة كاملة غير الثلاثة الموضوعين في الجريدة ووجدت في دار سي خليل بن الفاسي أرطل بارود في قرعة وأربعين حجرة من حجار لمكاحل رماية واحدى وتسعون حبة رضاص وطغاد بالفظة ووجدت في دار محمد وذينة تسع حبات رصاص ووجدت في دار سي محمد بومناح خمسة مكاحـــل وقـــال لي نفسي وأنا ضنيت لشيخ بوعكاز ودار سي الحاج حم بن مناح وجدت فيهـــا مكحلة عمارة كاملة وعليها أربعون حبة مرجان ووجدت في دار شيخ ســـي الطاهر بن الساحلي ثلاثة مكاحل وقال لي نفسي وإما دار سي الحاج حم بـــن عبد العظيم ودار بن شريف ودار سي العطافي بن وذينة هاذه الديار الثلاثة لم نجد فيهم شيئا وأما السلاحات امتاع الشيخ بوعكاز من مكاحـــل وبشـــاطل وسكاكن الموضوعة عند الناس أمانة فإني جردها في جريدة وسميت في الجريـــدة واحد باسمه وفرقته وبقيت السلاحات عند الناس أمانة كما أمرني سعادة السيد الجنرال والسلاحات التي أتى بها الشيخ بوعكاز من مكة فإني وجدت نصـــيبا وقدره موضوع في الجريدة فإني وضعته تحت يد وسميت في الجريدة من وجدت

عنده من سلاحات مكة كل واحد باسمه وفرقته والموضع الذي موضوعين فيه وأرسلت لك الجريدتين لتفهمهما وترسلهما على يدك لسعادة السيد الجنرال مع جوابه والسلام من السيد أحمد خوجة بن عاشور خليفة فرجيوة وفقه الله.

أربعة قرعات فرنصاوية.مملين بارود ثلاثة والرابعة ليست مملية.

SUBDIVISION DE CONSTANTINE

Cercle de Constantine

KALIFAT DE FERDJIOUA

عمالة قسنطينة

خليفة فرجيوة

في شهر ... عام 186..

الحمد لله وحده

في 22 ماي سنة 1864

الحمد لله وحده

اسعد الله حظرة المعظم الأرفع الهمام الأنفع سعادة السيد الكمامنده مصطفى بالمه بالله آمنه الله عليك السلام مرور الليالي والأيام وبعد يا نعم السيد بلغني جوابك الأرفع متضمن بيد إرسال محمد بن الحامدي هناك نعم سيدي وإني وجدته قدم لقسنطينة مع عمر بن خالد ومحمد بن مخيثر والحاج البشير بن احمد الواعي والحاج محمد بن بروو وهؤلاء الأشخاص المذكورين كلهم قدموا لقسنطينة يخبرون الأهل الشيخ بوعكاز في اليوم التاسع عشر من شهر التاريخ ليكون أمره في علمك وحين يرجع لابد نرسله لك وثانيا سيدي أمرتني نوجه لك ما وجدناه من بارود وحجار ورصاص امتلاع الشيخ بوعكاز فاني أرسلت لك سيدي ما جرناه من هاذه الثلاثة المذكورة مع حامل الجواب خديمنا الدايرة علي بن السابع والآن نفهمك سيدي على التفصيل اما البارود الذي موضوع في البرمة هو الذي وجدناه في دار سي السعيد بن الفاسي والذي موضوع في القرعة هو الذي وجدناه في دار سي خليل بن الفاسي كما وجد عنده أيضا أربعون حجرة للبنادق وماية وإحدى وتسعون حبة رصاص وتسع حبات رصاص وجدناهم في دار محمد بن وذينة وأما البارود الذي موضوع في القرع الفرنصوية وهم أربعة ثلاثة مملين والرابعة غير مملية وجدناه في دار سي محمد بن الحاج هذا الذي أخبرتك به في الجواب المورخ بالسابع والعشرين من أفريل واما المربوط حربي وعدده مايتين وستعون قرطاسا ومايتين وأربعون حبة رصاص وستة وأربعون حجر للبناق هو الذي أتى به الحاج بلخير واخبرتك به في الجواب المورخ بالثاني عشر من شهر التاريخ فتراني سيدي أرسلت لك الجميع

ونضرك أوسع والسلام من ابنك وخديمك سي احمد خوجه بن عاشور خليفة فرجيوة وفق الله الجميع أمين.

DE CONSTANTINE

KALIFA DU FERDJIOUA

عمالة قسنطينة

خليفة فرجيوة

الحمد لله وحده جل وعلا

عام في شهر جليت 1864

الى حضرة سعادة السيد الكماندو بالحاكم الكبير ... السلام عليك والرحمة والبركة بلا كنت مخبر والحمد لله على ذلك وبعد سيدي بان فيه كنت خبرتك بجواب بان الرأس ... ففي جمعة صبيحة يوم الخميس باعراشنا وتلاقينا مع المنافقين وتكلم البارود بيننا فمات رجل من حدادة وبقي بخيلة والجاريح سبعة اولهم خديمنا ... جريح من فخذه الايمن والثاني سعيد بن ... جريح في الصدر وهو ضربه في المعارك ومن ... رجل مجروح من ... البزولة ورجل من ... بني مسعط ورجل مجروح من فرقة تافغلات ورجل من فرقة اولاد مسعود من عرش ... ومن عرش زرزة رجل مجروح واما الموتى من اهل الراس رجلين فلما كان هذا الامر انهزموا اعراشنا وهربوا امام العدو حتى الى الوادي ولم يبق ... احد من الاعراش سوى المشايخ فرجعت الى الموضع ... وهربوا الاعراش عنا فلا ... ان نقتل معكم ونتكل ... خدمتي معكم وسبب الهزيمة ان عرش جيملة واولاد ... اتفقوا بان يضربوا معنا ونكون يدا واحدة وبعد رجوع القتال تخلفوا عنا بهذا السبب انهزمنا وسمعت من بعض الناس ان اهل الراس بعثوا الى عرش جيملة ... جيملة قبل القتال ... بعد ان حصل القتال ... هل ... منهم ... ان عرش جيملة واولاد ... اجتمعوا بعد افتراق القتال واتفقوا على ان يكون ايديهم في القتال يد واحدة ... ونحن اخبرناك بالموضع ... اليك ورايك اعلى والسلام من كتب عن اذنه ... ابن عاشور خليفة بني فرجيوة ... الله ...

ونخبرك ايضا بان ... من ... هربوا من ديارهم باموالهم ... للزرع ... وخذا ... بعد الموقع

164

في 14 جويلية 1864

الحمد لله وحده، سبحانه جل وعلا

إلى حضرة سعادة السيد الكامنده بالمه السلام عليك والرحمة والبركة فإن كنت بخير فالحمد لله على ذلك وبعد سيدي فإنني قد كنت خبرتك بجواب بأمر من الراسل فإنني فزعت صبيحة يوم الخميس باعراشنا وتلاقينا مع المنفقين بتكلم البارود بيننا فمات رجل من خدامنا وبقي فضيلة والمجاريح سبعة أولهم خديمنا صالح بن العرجاينة مجروح من فخذه الأيمن والثاني سعيد بن غشام من فرقة ملاره مجروح في الصدر وهو ضرير في الممات ومن فرقة اللوز رجل مجروح من صدره تحت البزولة ورجل من فرقة بني مسعد ورجل مجروح من فرقة تاقفات ورجل من فرقة أولاد مسعود من عرش مجالد ومن عرش زرزة رجل مجروح وأما الموتى من أهل الراس رجلين فلما كان هذا الأمر انهزموا أعراشنا وهربوا أمام العدو حتى إلى الواد ولم يبق معي أحد من الأعراش سوى المشايخ فرجعت إلى الموضع فلم (بيواحد) وهربوا الأعراش عنا فالآن نريد أن نقتل معكم وتنتظر فعلي وخدمتي معكم وسبب الهزيمة أن عرش جيملة وأولاد حاية أتوا إلينا واتفقوا بأن يضربوا معنا ونكون يدا واحدة وبعد وقوع القتال تخلفوا عنا فهذا سبب انهزامنا وسمعت من بعض الناس أن أهل الراس دفعوا إلى عرش جيملة ستين رأس من البقر فلم يقبلوها جيملة قبل القتال وأما بعد أن حصل القتال فلا علم لي هل قبلوها منهم أم لا وأيضا إن عرش جيملة وأولاد حاية اجتمعوا بعد افتراق القتال واتفقوا على أن يكون أيديهم في القتال يد واحدة وخذوا عهدهم ونحن أخبرناك بما وقع والنظر إليك ورأيك أصلح والسلام فمن كتب عن إذن سي أحمد خوجة بن عشور خليفة فرجيوة وفقه الله بمنه وكرمه.

ونخبرك أيضا بأن الناس المقاربين بالسكن من عزاة حموية هربوا من ديارهم باموالهم وقشهم ولم يبقوا إلا بانفسهم حافظين للزرع وأما الأعراش فقد تفرقوا علينا ولم يبقوا معي إلا المشايخ وخدامنا والكبار من الناس وأنا لا يمكنني البقاء بهذا الموضع لعدم القدرة والطاقة بعواد الأعراش عني ونحن ننتظر جوابكم والسلام.

من سياسة فرنسا في الجزائر الإعدام[1]

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين..

أيها الحضور الكريم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

ترددتُ كثيرا حين طُلب مني أن أتحدث أمامكم في موضوع هام خاص بتاريخ الجزائر، وأنا لست من صَنَع الحدث؛ أمام مجاهدين ومناضلين صنعوا هذا الحدث من قريب ومن بعيد.. ولكنني امتثلت لرغبة بعض المجاهدين الصادقين قائلا إن الطلب من الكرام مقبول.. ترددت لأنه من الصعب أن أتحدث في مثل هذه الذكرى وأنا ممن ينتسبون إلى دارسي الحدث، وليس إلى مدوني الحدث، وإن كان التكامل وارد وضروري بين مدوّن الحدث ومفسِّر الحدث وموظف الحدث، (أي بين المجاهد والمؤرخ والسياسي والمشرع..)

أيها الحضور الكريم ها نحن اليوم نحيي ذكرى 19 جوان 1956 الخالدة بعد مرور ما يقارب نصف قرن، ذكرى المحكوم عليهم بالإعدام؛ الشهداء منهم رحمهم الله، والأحياء منهم حفظهم الله سبحانه وتعالى، نحيي الذكرى تقديرا وإجلالا لمن صنع الذكرى، نحيي الذكرى ونحن نعتز بانتمائنا إلى أمجاد الشهداء الأوفياء.. ولكن هل تكفي الذكرى؟ ذكرى واحدة.. وبماذا نحيي الذكرى؟ هل نحييها بالدعاء والبكاء؟ أم نحييها بذواتنا المقهورة؟ أم نحييها بافتخار واعتزاز ومواصلة الجهاد؟

---

1 – ألقيت هذه الورقة بالمركز الثقافي مالك حداد بمناسبة الاحتفال بالذكرى الأولى 19 جوان 1956 في قسنطينة 2004 من تنظيم الجمعية الوطنية للمحكوم عليهم بالإعدام

علينا أن نحييها صادقين من دون نسيان بوفاء وبالعمل من أجل تكريس رسالة المجاهد الشهيد من أجل حرية الجزائر وكرامة ورفاهة الجزائري.

وإني أنقل إليكم بأمانة رسالة الشاعر محمد بن رقطان من قالمة التي حملني أياها يوم أمس حين علم بعقد هذا الملتقى، وجهها إليكم أيها الحضور قائلا[1]:

وأقيموا للشهداء // ألف ذكرى في المشاعرْ

إن تخليد الشهيد // بالوفاء لا بالمظاهرْ

إن ما ارتكبته فرنسا في الجزائر يعدُّ جريمة ضد الإنسانية. إذ جاء في الوثيقة المناهضة للتعذيب الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة 46/39 المؤرخة في 10 ديسمبر1984[2] أن "التعذيب" هو أي عمل ينتج عنه ألمٌ أو عذاب شديد، جسديا كان أم عقليا، يلحق عمدا بشخص ما. هذا عن الشخص الذي يلحق به ألم فما بالك بالمحكوم عليهم بالإعدام الذي يكون قد عذب وقتل بوحشية، أو الذي عذب ولازال يتألم (جسميا ونفسيا) من دون أن يرتكب جريمة ضد الإنسانية، لا لشيء إلاَ لأنه أراد أن يخدم الإنسانية بمساعدتهم على نيل بالحرية.

ولكن الطرف الفرنسي قد تكون حجته على هذه الوثيقة أنها مؤرخة في عام 1984. أي بعد استقلال الجزائر، ولكن تاريخ فرنسا يشهد بقانونها العسكري الذي أصدرته في 26 نوفمبر 1726 الذي نصَّ في:

1 – من شعر محمد بن رقطان من قالمة سلمها لتذكر في هذه الذكرى الأولى 19 جوان 2004

2 – حقوق الإنسان: مجموعة صكوك دولية، المجلد الأول، الأمم المتحدة، نيويورك، 1993

المادة 6: أن كل عسكري يقوم بتعرية رجل جرح في المعركة وهو حي يعاقب بعشر سنوات سجن.

المادة 7: أن كل فرد عند تعرية رجل جرح في معركة، وهو حي وقام بتعذيبه أو قتله، خارج الميدان فإن عقوبته القتل[1]. وقد افتخر الفرنسيون بمبادئ هذا القانون؛ ولكنه في التطبيق وخاصة على الجزائريين كان الأمر يختلف تماما. إذ تميزت سياستها في الجزائر عن باقي سياساتها الاستعمارية في البلدان الأخرى. إذ كانت الجزائر في نظرها امتدادا لفرنسا (قانون عام 1834 وعام 1848 وعام 1957). ولهذا بذلت جهدها لفرض أمر الواقع على الجزائريين، بأن طبقت سياسة قائمة على الترغيب والترهيب والتعذيب، مستخدمة وسائل كثيرة منها:

1- عقد "المعاهدات" التي كانت مع الداي حسين عام 1830. ومع الأمير عبد القادر عام 1834 و1837 و1847. ومع الدوائر والزمالة في الغرب الجزائري عام 1835. ومع سعد وليدو رابح في بجاية عام 1835. ومع الحاج أحمد باي في الشرق الجزائر عام 1848. ومع الميزابيين في غرداية عام 1853. ومع التوارق عام 1862[2].

---

1 - يراجع ما نشرناه في كتابنا بعنوان: **أبحاث في الفكر والتاريخ**، دار الهدى-الجزائر، 2003، بداية من صفحة 26

2 - يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1991، ص-ص. 123-124.

2 – تهجير السكان من أوطانهم الأصلية

3 – إقامة السجون والمعتقلات

4- القتل والنفي

وفيما يتعلق بسياسة السجون والمعتقلات فالمتعارف عليه أن سجونا ومعتقلات كثيرة أُعِدّت عبر أنحاء الوطن. ولا تزال آثارها باقية. ومن هذه السجون نذكر: سجن سركاجي، وسجن الكودية، معتقل شلالة. ومعتقل الجرف. ومعتقل آفلو. ومعتقل سيدي الشحمي. ومعتقل الدويرة. ومعتقل قصر الطير. ومعتقل رقان. ومعتقل عين البيضاء في ورقلة. ومعتقل البرج الأحمر. وملاحة. وتازولت. وفرجيوة. وسمندو. ولامبيز، ولازيرت. سجن مزيرة. بالإضافة إلى سجون أخرى عبر أنحاء الوطن[1]. وقد عذب وقتل كثيرون في هذه السجون عبر عشرات السنين.

فبشيء من المراجعة للسياسة الفرنسية في الجزائر يتبين أنها ارتكبت مثل هذه الجرائم من دون أدنى اعتبار للقيم الإنسانية. وهذه الجرائم كانت منذ القرن 19

ولمزيد من الاطلاع على محتوى هذه المعاهدة يراجع نصها باللغة الفرنسية في: عبد الرحمن تشايجي، **الصراع التركي–الفرنسي في الصحراء الكبرى**، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ليبيا 1982، ص-ص. 268–269.

1 – لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **فواصل في الفكر والتاريخ**، "الجنوب الجزائري دعم للثورة التحريرية"، دار البعث، قسنطينة 2002، ص-ص. 122–149وكذلك كتابنا: **موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي**، دار الهدى، عين مليلة 2004، بداية من صفحة 110

ففي عام 1877 كان عدد المساجين في الجزائر 4611 منهم 148 امرأة[1] وكانت أعمارهم تتراوح ما بين 16 و60 سنة وقد أصيبوا بأمراض متنوعة بلغت 51 نوعا[2]. بجانب سجن مزيرة الخاص بالأطفال فقط[3].

وقد وجه كثير من الفرنسيين وبخاصة منهم المفكرون أمثال جان بول سارتر الذي كتب أكثر من موضوع انتقد من خلاله هذه السياسة الفرنسية[4]

وبرغم ما ادعته فرنسا بتنظيمها للسجون ومعاملة المساجين بعدالة بحجة أنه منذ عام 1887 تأسس مجلس عال لإدارة السجون في فرنسا وفي مستعمراتها وتشكل من وزير الداخلية و9 من مجلس الأمة و 8 نواب ووكيل الجمهورية و14 عضوا يمثلون مختلف القطاعات. وقسموا وأداروا أعمال السجون بخمسة مكاتب[5]. واستمر هذا التنظيم إلى تاريخ متأخر، فبالرغم من ذلك فقد لقي الجزائريون من العذاب ما لم يكن في التاريخ، إذ أعدم في الشرق الجزائري مثلا 56 مجاهدا خلال الفترة الممتدة من 7 أوت 1956 إلى 30 أفريل 1958[6] أي بمعدل يقارب 18 شهيدا في السنة.

1- M. Michon, **Statistique des Prisons**, Imprimerie administration de Paul Dupont, Paris 1880, p. 6

2 - M. Michon, **Statistique des Prisons** . p. 106, 123.

3 - M. Michon, **Statistique des Prisons** . p. 228.

4- لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: **موضوعات في تاريخ الجزائر السياسي**، دار الهدى، عين مليلة 2004، بداية من صفحة 195

5 - M. L. Herbette, **Code Pénitentiaire**, T 12, Melun, Paris, 1890 p-p. 7-13

6 – حسب وثيقة يوم المحكوم عليهم بالإعدام ، الجمعية الوطنية للمحكوم عليهم بالإعدام، قسنطينة 19 جوان 2004

والحقيقة إن السياسة الفرنسية ليست بالجديدة، فهي جاءت إلى الجزائر بشعار هو شعار ثورتها: الإخاء والحرية والمساواة؛ كان هذا الشعار ظاهريا، ولكنها تفننت في إيجاد وسيلة تعذيب "حضارية" هي المقصلة التي اخترعها مفكروها وكان ضحيتها ملكُها لويس السادس عشر. فسياسة الإعدام بالمقصلة بدأت بمرحلة الثورة الفرنسية 1789–1804، وتواصلت وسيلة المقصلة في الجزائر فكانت عامل تنفيذ في أول مجاهد بالإعدام وهو زبانة حميده برفقة زميله فراج.

وقبيل تنفيذ الإعدام فيه بعث زهانة "زبانة" حميدة يوم 19 جوان 1956 رسالة باللغة العربية هذا نصها:

أقاربي الأعزاء .. والدتي العزيزة

أكتب إليكم لست أدري أتكون هذه الرسالة هي الأخيرة والله وحده أعلم فإن أصابتني مصيبة كيفما كانت فلا تيأسوا من رحمة الله إنما الموت في سبيا الله حياة لا نهاية لها، وما الموت في سبيل الوطن إلاّ واجب، وقد أديتم واجبكم حيث ضحيتم بأعز مخلوق لكم فلا تبكوني بل افتخروا بي.

وفي الختام تقبلوا تحية ابن وأخ كان دائما يحبكم وكنتم دائما تحبونه، ولعلها آخر تحية مني إليكم، وإني أقدمها إليك يا أمي وإليك يا أبي وإلى نورة الهواري وحليمة الحبيب وفاطمة خيرة وصالح أودينية وإليك يا أخي العزيز عبد القادروإلى جميع من يشارككم في أحزانكم

ابنكم وأخوكم الذي يعانقكم بكل قواه حميده

ومما لا شك في ذلك أن هدف فرنسا من هذا الإجراء الدموي هو إرهاب الشعب الجزائري. وكذلك إعدام مقومات المجاهد قبل إعدامه جسديا. ولكن هل أرهبت طريقة الإعدام الشعب الجزائري؟ وهل تم إعدام مقومات الشعب الجزائري؟ لكن الشهيد هو حي، وقد جعل من جسده وروحه للجزائر جهادا مستمرا وحفاظا على مقومات شعبه. فالشهيد أدى الرسالة، فعلينا أن نصون الأمانة. وعلينا أن نكتب تاريخنا بصدق، لأنه من العار على أبناء الجزائر حين يركنون ويتبنون ما كتبه الأجنبي عن تاريخ بلادهم.

اقتراحات

وبهذه المناسبة اقترح على الجمعية الوطنية للمحكوم عليهم بالإعدام:

-أن تعد ملفا علميا (تاريخيا وقانونيا ونفسيا واجتماعيا) للمطالبة بالحقوق الشرعية

-أن توزع استمارة استبيان لتجمع الاقتراحات

-أن تخلد المحكوم عليهم بالإعدام في كتاب خاص متميز

-أن تعد قرصا مرنا للمحكوم عليهم بالإعدام

-أن تسعى لدى الجامعات كي تدرج بحوث خاصة تاريخية وسيكولوجية وسياسية وقانونية.. للمحكوم عليهم بالإعدام

-أن تعد وتساهم في إثراء الأرشيف الوطني وتستفيد منه ..

واختم كلامي بما أنشدكم الشاعر محمد بن رقطان من قالمة[1]:

وأقيموا للشهداء // ألف ذكرى في المشاعرْ
إن تخليد الشهيد // بالوفاء لا بالمظاهرْ
اِسْألوا الدنيا تُجِبْكُم // عن بطولات الجزائرْ
اِسْألوها عن شهيد // حين أدمتْه الخناجرْ
قبَّل الأرضَ وقال // بعدنا تحيا الجزائرْ

وشكرا لكم

1- سلم لي الشاعر هذه الأبيات لتذكر في هذه الذكرى الأولى يوم أمس 19 جوان 2004

مصادر ومراجع معتمدة

أ

أنيس إبراهيم وآخرون:

1- **المعجم الوسيط**، ج.1، دار الأمواج، ط. 2، بيروت 1987

دي إيبلزا والهادي الوسلاتي:

2- "ملاحظات أب أسباني يزور وهران في عهد مصطفى بوشلاغم"، **المجلة التاريخية المغربية**، عدد 12، تونس 1978، ص-ص. 191-201

أبو دياب فوزي:

3- **المفاهيم الحديثة للأنظمة والحياة السياسية**، داز النهضة العربية، بيروت 1971

أوغست مارتان:

4- **السيرة السنة في أخبار ملوك الدولة الفرانصوية**، مطبعة باستيد، الجزائر 1863

ب

بطرس ألجيل:

5- "الرحلات في الأدب الأنجليزي"، **الهلال**، عدد 7 مصر 1975

بوعزيز يحي:

6- **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1991

بوحوش عمار:

7- **تطور النظريات والأنظمة السياسية**، ش.و.ن.ت. الجزائر 1977

ت

تشايجي عبد الرحمن:

8- **الصراع التركي-الفرنسي في الصحراء الكبرى**، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ليبيا 1982

ج

الجرف طعيمة :

9- **نظرية الدولة والأسس العامة للتنظيم السياسي**، الكتاب الأول، ط1 مكتبة القاهرة الحديثة، 1969

ح

حسين مروة:

10- تراثنا.. **كيف نقرأه**، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، بيروت 1985

بن حمدة عبد المجيد:

11- المدارس الكلامية بإفريقية، مطبعة دار العرب، ط. 1، تونس 1986

د

دودو أبو العيد:

12- ترجمة، سيمون بفايفر **مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر**، ترجمه من الألمانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1974.

13- **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1955)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980

ر

روز، نتال (م)، بودين (ب):

14- الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ط. 5، دار الطليعة بيروت 1985

15- كتابه المفاهيم الحديثة للأنظمة والحياة السياسية، دار النهضة العربية بيروت، 1971.

رايموند كارفيلد كيتيل:

16- العلوم السياسية، ترجمة د.فاضل زكي محمد، ج1. ط3. مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد، 1963

ز

زتيلي محمد:

17- فواصل في الحركة الأدبية والفكرية الجزائرية. البعث. قسنطينة.1984

الزبيري محمد العربي:

18-ترجمة مذكرات الحاج أحمد باي، ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

الزهار محمد الشريف:

19-مذكرات محمد الشريف الزهار، تقديم أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974

س

سعد الله أبو القاسم:

20- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج. 1، 2، 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990

21- تاريخ الجزائر الثقافي، ج، 1، 2، 4، 6، 7، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998

22- شيخ الإسلام، عبد الكريم الفكون، بيروت 1986.

سيف الإسلام، الزبير:

23-تاريخ الصحافة في الجزائر، ج 2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر

سليم عبد الأحد:

24- مبادئ علم السياسة، مطبعة الهلال، مصر 1915

سعيدوني ناصر الدين:

25-دراسات وأبحاث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

سامعي إسماعيل:

26- "حرق المكتبات والكتب في بلاد الغرب الإسلامي تغييب للآخر أم جناية التاريخ؟"، مجلة دراسات أدبية وإنسانية، يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 2، نوفمبر 2004، ص-ص.13-37

ش

شلوصر فندلين:

27- قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، ترجمه من الألمانية، أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980

ص

صعب حسن:

28- مقدمة لدراسة علم السياسة، ط.1. منشورات المكتب التجاري، بيروت 1961

ع

عميراوي احميده:

29- فواصل من الفكر والتاريخ، دار البعث، قسنطينة 2002

30- أبحاث في الفكر والتاريخ، دار الهدى، الجزائر 2003

31- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، منشورات جامعة منتوري-قسنطينة 1999

32- من الملتقيات التاريخية، دار البعث ، قسنطينة 2001

33- موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي، دار الهدى 2004

34- علاقات الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، مطبعة دار البعث قسنطينة 2002

35- وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عام 1832. ترجمة. نشر جامعة غاريان، ليبيا 2003

36- السياسة الفرنسية والمقاومة الجزائرية في منطقة سكيكدة، دار الهدى، قسنطينة 2004

37- من تاريخ الجزائر الحديث، مطبعة دار الهدى بعين مليلة، ط 2، 2004

38- دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، ط.2، دار الهدى 2004

39-بحوث تاريخية، دار البعث، قسنطينة 2001

40- دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية 1827-1840، دار البعث، قسنطينة 1987

العربي إسماعيل:

41-ترجمة مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.

42-ترجمة مذكرات وليام شالر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982

علي سعد إسماعيل:

43- الاجتماع السياسي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1981

غ

الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد:

44- عنوان الدراية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981

ق

قسطنطين زريق:

45- نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت 1959

ك

كوري أحمد بن الشيخ بن حمدي:

46- مراسيل الموطأ، ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، 1991.

م

الميلي مبارك:

47- تاريخ الجزائر القديم، ج.3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر 1964

ابن منظور:

48-لسان العرب، المجلد الثامن، دار الكتب العلمية، ط. 1، بيروت 2002

و

ويدجري آلبان.ج:

49- التاريخ وكيف يفسرونه، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1973

وداد بيلامي:

50-النفوذ الاقتصادي والسياسي ليهود الجزائر (1516-1830)، ماجستير ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة 2004

ي

يخلف رمضان:

51-عبد الرحمن الثعالبي ومنهجه في التفسير، وماجستير جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 1992

A.M.G:

52- H228, H235,

A.O.M:

53- M90, 27H2

R.A :

54- années 1843, 1848, 1857, 1858, 1880, 1887,1895, 1896, 1897, 1833, 1959, 1960, 1962

55-**Historia** , no 486 , Paris 1987

56-**R H M**, no 4, année 1975

A

Annie Rey Goldzeiguer :

57-**Le Royaume Arabe**, SNED, Alger 1977

B

Blondel Léon :

58-**Aperçu sur la situation politique commerciale et industriel des possessions françaises dans le Nord de l'Afrique**, Imprimerie Royale Paris 1836

« Bakir-Khodja » **Ammar ben Hassein :**

59-**Dictionnaire pratique français-arabe**, Maurice Boêt, Constantine 1906

C

Chambre de Commerce de Constantine :

60-**Comte rendu**, Exercice 1857-1858, Constantine 1858

D

Desvaux :
61-Mémoires de Desvaux **Archives de la bibliothèque des Invalides** Paris M737

E

Esterchazy (W.) :
62-**Domination turque dans l'ancienne Régence d'Alger** Goussin, Paris 1840

F

Charles Féraud :
63-**Les interprètes de l'Armée d'Afrique**, Jourdan, Alger 1876
Felix (A.) :
64-**Constantine centre économique, marché de grains et de tissus,** Camilli et Fourié, Toulouse France

H

Hamdane Khodja (Sidy) :
65-« Réponse à la réfutation de l'ouvrage d'Hamdan » **Extrait de l 'observateur des tribunaux :** T IV, Dezauche. Livraison 3,4. Paris 1834.
M. L. Herbette :
66-**Code Pénitentiaire**, T 12, Melun, Paris, 1890

L

Laugier de Tassy
67-**Histoire du Royaume avec l'état présent de son gouvernement,** Amesterdam, 1725
Laroui, Abdallah :
68-**L'histoire du Maghreb**, Maspero, Paris 1976.

M

Michel de Grèce :
69-**La nuit du serial**, Olivier Orban, 1982
Megnaoua Chérif :
70-**Le Registre du Caïd El Bled de Constantine 1848- 1850**, Linotype Braham, Constantine 1929.
71-M. Michon, **Statistique des Prisons**, Imprimerie administration de Paul Dupont, Paris 1880
Martin Rheinheimer :
72-**Der Fremde Sohn, Hark Olufs**, Wachholtz, 2003
Marmol Carvajal :

73-**Description générale de l'Africa**, traduit en Français par M. Perrot d'Alblaucourt sous le titre: L'Afrique de Marmol,

N

Nouchi (A.) :

74-**Luttes Pétrolières au prêcheraient** . Flammarion.1970

Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'à 1919, Paris 1961

P

Peyssonnel, et, Desfontaines :

75-**Relation d'un voyage dans les Régences de Tunis et d'Alge**r, 2 t, Gide, Paris 1838.

R

Roux (Ch) :

76-**France et Afrique du Nord avant 1830**, Félix Alcan, 1932, Paris

France et Afrique du Nord avant 1830.

77-**Rehbibder Von**:

Nachrichten und Memer Kungen über den Algierscben Staat, Altona 1789-1800.

S

Shaler William :

78-**Sketches of Algiers**, Boston, Century 1826

Shaw (docteur) :

79-**Voyage dans la Régence d'Alger**, traduit de l'Anglais par Mac Carthy, Paris 1830.

T

Turin (Y.) :

80- **Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale**, E.N.A.L. Algérie 1983.

V

Victor Démontes :

81- **L'Algérie industrielle et commerçante**, La rose, Paris 1930

W

Warnier, et, Carette (A.E. Hyppolyte) :

82-**Description et division de l'Algérie** Hachette, Paris 1847

فهرس الموضوعات

في هذا الكتاب

ثمانية عشر موضوعا تتعلق بتاريخ الجزائر الحديث. وبقضايا فكرية، وبرحلات علمية من وإلى الجزائر. وبأثر المذهب المالكي في الثقافة الجزائرية وفي هويتها، وبواقع السلطة فيها مقارنة بواقع السلطات في البلاد العربية. مثلما تتعلق بجوانب من السياسة الفرنسية في الجزائر؛ كالترجمة، والتجارة، والطب، وبموقف الجزائريين منها.

نأمل أن يكون هذا الكتاب دعوى صادقة لإحياء تاريخ الجزائر في المشاعر بالوفاء لا بالمظاهر. لأن المهم أن نكتب تاريخ الجزائر، والأهم أن يقتنع الآخرون بما نكتب.

المؤلف

ردمك [illegible] - 0 - 0749 - 9